رواية

طاهرة علوي

صيف ذلك العام

ترجمها عن الفارسية
أحمد حيدري

المتوسط

@ketab_n
Follow Me
10.5.2017

طاهرة علوي

صيف ذلك العام

ترجمها عن الفارسية

أحمد حيدري

المتوسط

Twitter: @ketab_n

صيف
ذلك العام

Twitter: @ketab_n

حقوق النسخ والترجمة © ٢٠١٥ منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

تابستان آن سال - Tabestan A'n Sal *by* "Tahera Alalawi"
Text copyright © Tahera Alalawi
Arabic translation copyright © 2015 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: طاهرة علوي / المترجم: أحمد حيدري/ عنوان الكتاب: صيف ذلك العام
الطبعة الأولى: ٢٠١٥.
صورة الغلاف: Will Barnet / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-91-87373-74-9

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / الحيدر خانة / محلة حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

Twitter: @ketab_n

-١-

كتبَ والدي في رسالتِه:

"ابنتي! لا تفكّري في مصاريف الدراسة. إذا اضطررتُ لبيع الجاكيت، سأبيعه لتُكملي دراستكِ".

وسألتُ نفسي: كم يبلغ سعر جاكيت والدي؟ غير أنّه حينما يطمئن على مصاريف الدراسة، يذهبُ إلى اختيار فرعي بنفسه، وبلا حضوري أيضاً. يُرتّب القائمة التي تناسبُه، والتي تبدأ بفرع الطبّ وتنتهي به:

طب العيون، طب الأسنان، علم النفس، البيطرة، حتى طب التجميل الذي لا نعرفُ ماهيته لا هو ولا أنا. وإن كانت معرفتي لا أهمية لها هُنا، كما هي العادة! وبعد ذلك، يكتبُ قيمة الريال مقابل الدولار والبوند والفرنك والين والليرِ... وفي آخر الرسالة، يعيدُ ذِكرَ حكاية بيعه للجاكيت.

في كلّ إسبوع، تصلُني عدّة رسائل من أبي. وتأخذ الرسائل مني شهراً كاملاً لكي أطّلع عليها. وقبل فتحها، أغيّر مَكانها مرّات لا تحصى؛ أحملُها من المطبخ وأضعها على الطاولة، ثم أحشرُها في درج أو خزانة، وأخيراً أضعُها مع الأوراق والملفات المَنفية، حتى لا تقعَ عيناي عليها، عندها أسعى إلى تناسيها، مع ألمٍ يعتصرُني في داخلي.

كنتُ أؤخّر قراءة الرسائل إلى أن وصل الأمرُ إلى اتّصال والدي بنفسه ليسألني: "ابنتي، هل وصلت رسائلي؟" بالطبع وصلت، ولكن لو قلت له بأنها وصلت، فكان عليّ أن أجيبهُ على سؤالٍ قادم: "إذاً، لمَ لمْ تردّي؟" ولم أرِد أن أكذب عليه، فأجيب بجمل لا ترتبط بسؤاله:

Twitter: @ketab_n

"متى بعثتها؟"

النتيجة المنطقية لهذه الجملة من والدي هي: "لا".. أنا بعثتها.."، في حال أني لم آتِ على ذكرها، وعندها سيحاولُ والدي جاهداً أن يتذكّر متى أرسلَ آخر رسالة:

"قبل ثلاثة أو أربعة أسابيع. يمكن أكثر، دعيني أرى. في ذلك اليوم الذي ذهبتُ فيه أنا وأمك إلى منزل عمك.. لا لم يكن ذلك اليوم، أعتقدُ أنّه كان في يوم مجلس تأبين المسيو وارطان.. لا لم يكن في ذلك اليوم، إذاً يجب أن يكون في يوم.."

والآن، حان وقت الشعور بالذنب! لقد أوقعتُ العجوز ذا الذاكرة الضعيفة في مِحنة، ولم يكن أمامي إلا مدّ يد العون له:

"الأمر ليس مهماً والدي العزيز".

"لا.. الأمر مهم".

"ألا يمكنك تجاهل الأمر؟"

"لا.. لا يمكن".

والنتيجة هي أن حوارنا يقذفنا إلى: "هذه البلاد التي لم يبق بها راعٍ.."، يقولها ويزداد حسرة. أعرف أنّه في هذه اللحظات، لن يجلس على كرسي، ولا يمُكنه أن يثبت في محله، بل يقضي الوقت ماشياً، وهو يمُسك الهاتف اللاسلكي حتى يرتفع صوت أمي:

"يا أبا الفضل، دخت".

ولكن إذا سألني: "ماذا عن رسالة أمك، هل وصلتك؟" فأنا حينها أجبر مرة أخرى على اللف والدوران: "وهل بعثتما رسالتكما معاً؟"

فأوقع والدي مرّة أخرى في دوائر ومُنحرفات كيفية وصول الرسائل، ومرّة

Twitter: @ketab_n

أخرى نعود إلى حركة كتابة الرسائل حتى وصولها إلى البريد، لتأخذ أمي السماعة من يد والدي وتقول: "قتلتنا برسائلكَ هذه، وهل هي رسائل علي بن أبي طالب إلى مالك بن الأشتر(*) حتى تتابعَها هكذا؟"

ومن حسن الحظ، أن الرسالة لم تكُن من طراز رسائل الإمام علي، أو بمستواها، فيقتنع والدي برأي أمي دائماً ويسكت.

*) رسائل شهيرة كان يبعثها الإمام علي إلى مالك بن الأشتر، وهي جزء من التراث الشيعي.

Twitter: @ketab_n

-٢-

كان صاحب النزل إسبانياً خسيساً، وهو دائم النسيان أيضاً. إذ أن الجلسات والحوارات السابقة، وتكرارها في جمل خبرية واستفهامية، لم تُقلّل من سوء التفاهم بيننا. وكلما ذكرته بوعوده، حدّق بي بعينيه الصغيرتين، من خلف حواجب كثيفة لها استعداد للامتداد أكثر، وهزّ رأسه تأسفاً. ولا يتفوّه هذا الرجل مُجيباً على أي سؤالٍ عن حاله، أو أين كان. وكلما دققت، وأوضحت، ازداد هو في سوءِ ظنه، وتردده، خاصة عندما يأتي ذِكرُ المال، ذلك لأن مرضه يزداد حينها. أما الشيئ الوحيد الذي يقفُ عائقاً أمامي، هو أن هذا الرجل هو صاحب النزل الذي أقطنُ فيه.

وما يحدث هو أنيّ أتقبّل ما يشير عليّ به، وأعترف له بالحق، والحقيقة هي أني أنا دائمة النسيان، وما عليه هو إلا أن يغفر لي مرّة أخرى بكبير عطفه.

وهذه المرّة، دار الحديث معه عن طِلاء الغرفتين، فقد كان مكتوباً في عقد الإيجار بأنّه كان قد أخذ مالها من المُستأجر السابق! وكان السؤال هو: "كم عمر المسيو خوان؟"

لم أسأله أنا مُطلقاً، فهو يَظهر أحياناً أقل سناً ممّا هو عليه، وأحياناً يظهر أكبر، ولكن له ستون عاماً، وأحياناً يعبر حدود المائة عندما يتحدّث عن ماضيه، ويقفزُ مُرتمَياً من قرنٍ إلى قرن آخر، كما لو كان يشربُ الماء. لقد كان المسيو خوان يُعاني من الرعشة؛ رجلاه ترتعشان، ويداه ترتعشان. أما كتفه اليمنى، فتعزف لحناً لا ينسجم مع يده. ارتعاشته لا شبيه لها، إنّها مُختلفة جداً، وطبعاً هُناك فترات تخف حدّة هذه الارتعاشة، لكنّها

Twitter: @ketab_n

عندما تنشط فيه، فإنها تؤثّر على من يقف بجانبه أو حتّى من يبتعدُ عنه عشر أقدام بموجتها، وأما جفنه الأيسر، فقد نظم مع عقرب الدقائق، ومع مرور كلّ دقيقة يهتز، ولو أضفنا له ارتعاشة القسم الأيمن مع الجانب الأيسر، لاكتمل الحفل.

يقول السيد خوان بأن كلّ المصائب التي سقطت على رأسه كانت دائماً من نصيب القسم الأيسر من جسده. ولكن من بين كلّ هذا الاهتزاز، توقعني هزّة رأسه في سوء تفاهمٍ معه، لأني لا أعرفُ المقدار المرتبط برعشته والمقدار المرتبط بمخالفته لي:

"عُذراً مسيو، لم أفهم. هل أنت مع ما قلتهُ لك؟" يهز رأسه.

"لا توافق على ذلك؟"

مازال يهز رأسه.

"إذن، أنت مع ما أقول؟"

أحياناً، وللاطمئنان، يدور العجوز المسكين بالسؤال، فيتبعني بعينيه الزرقاوين اللتين تختبآن خلف سائل غليظ، وتظهران أكثر زرقة حينما ينظر لي بغضب وبغض، ولا يبقى أمامي إلا أن أقول:

"حسن، حسن، لا يهم. لا تغضب، ظننتُ بأنك تخالفني الرأي".

بعد مرور مدّة، أحسستُ بأنّ حركات رأس مسيو خوان مُعدية، إذ أثّرت علي تأثيراً كبيراً. أفاجَأ أحياناً وأنا أتحدّث معه، فأجد نفسي وأنا أهز برأسي، ثم أخذتُ كلما أتحدث مع مسيو خوان أثبّتُ رقبتي، لدرجة الشعور بالألم.

ورغم كلّ هذه الاهتزازات، يبقى جسدُ صاحب نزلي رَشيقاً في تناسق حركاته الشبيهة بأوركسترا "فيلهارمونيك وين".

Twitter: @ketab_n

-٣-

لم أرتح لكلبة مسيو خوان الضخمة التي جلست جنب صاحبها تحدق فيّ. هذه الكلبة، ومنذ اليوم الأول لي هنا، تعمدت معاندتي، وكل مرة ألتقيها، كأنها تراني للمرة الأولى، إذ تبقي على نظرة الشك بي، وسوء الظن والرصد، رغم أني أحبها، أو أحبها تقريباً؛ أقول تقريباً لأني أتظاهر بهذا الحب، لأنها كلبة صاحب النزل. ومن جانب آخر، ومن خلال تظاهري بحبها، أردت إجبار الكلبة على قبولي، حتى أشعر مقابل هيبتها بالأمن، ولكن هذا الإحساس لم يأتني أبداً، ولماذا عليه أن يأتيني؟

فمع الخلفية التاريخية المذهبية المرّة التي نحملُها عن الكلب، ومما أكدوه لنا، بأنه هو الشيطان حين يتجسّم في جسد كلب أسود، ذلك أن الكلبة سالي العزيزة مثل ليلة ليلاء؛ إذاً لا يرتبط الأمر بي أو بالتراث التاريخي المر أكثر ممّا يرتبط بحظها الكلبي، وهذا أيضاً هو أحد الأحداث التي جرَت معي والمرتبطة بسالي. كلّما نظرتُ للمسكينة، فإنها تحيي في ذهني آلاف المسبات الجارية على ألسننا وفي أدبياتنا في ذمّ الكلب، وإبن الكلب، وإبن الجرو، وإبن المذهب الكلبي، وصاحب الكلب...

ومن خجلي، لم يعد في وسعي النظر في عيني سالي، وما يثلج صدري هو ما قام به الرسول حين تقاسم أكلهُ مع كلب، رغم أنه لم يُحدّد في الأحاديث لون الكلب، ولا نوعيته، ولكن المؤكد هو أنّهُ من جنس الكلاب. ورغم هذه المحبة الممنوحة للكلب، لا أستطيعُ تحمل فكرة ثقل لسان سالي ولزاجته على وجهي. وقد فهمَت سالي استيائي جيداً، إذ أنها لم تكرر الأمر معي منذ تجربتها الأولى، فيرميني صاحب النزل بنظرة ريب، ويسأل:

Twitter: @ketab_n

"ألا تحبين الكلاب؟"

بالطبع أحبها، أحبها جداً، وهل هناك قيمة لشخص على هذه المعمورة لا يحب هذه المخلوقات ذوات الرؤوس السود, ولكن عدم حب هذه الحيوانات هو جزء من الأخطاء التي لا تغتفر، وهل هناك من يجرؤ على بغضها؟ وأنا أحب كلّ الحيوانات من طيرها وزواحفها وقوارضها، خلاصة الأمر أني أحب كل أجناسها، وقد تتخطى هذه المحبة مَحبتي لأمي ووالدي.

Twitter: @ketab_n

-٤-

ما يُمكّنني من فهم المسيو خوان هو معرفتي بتصرفاته المنفعلة، ومعرفتي بمخالفته لأيّ تغيير أو تحول، وإن كان صغيراً. فهو يخالف تبديل أماكن أوعية المطبخ الصغيرة، أو يخالف تغيير أدوات الحمام القديمة، حتى أنّه يخالف تبديل الفقاعات المتكسرة على الجدران أمام أبواب الغرف، إلا إذا لم تطالبه بمال، عندها تتحول إلى أمرٍ ضروري حتى أهم من لقمة العيش.

أدهشني مجيء المسيو خوان في أحدِ الأيام، وهو يقول لي بأنه يريد، وعلى حسابه الخاص، أن يصبغ غرف شقتي، أقول اندهشت؟ أمر لا يصدق، خاصة وأنه غالباً ما كان يخالفني. ولم يدُرْ بخلدي أن أتحقق عن سبب هذا التبدّل المفاجئ، خوفاً من أن يتراجع. حتى أني لم أظهر له دهشتي أبداً، فالموضوع هُنا لا يحتاج إلى كلّ هذا التعقيد؛ صاحب النزل يريدُ أن يتحمّل مصاريف صبغ غرفي، أو في الواقع غرفه هو. حسن، فليقم بالأمر، فالأمر لا يرتبط بي. الشيء الوحيد المرتبط بي هو أن تخرج جدران غرفي من حالة التصدع وتساقط الطلاء، وهو يريد أيضاً أن يصبغ خزائن المطبخ والكراسي وطاولة الطعام كلها باللون الأبيض. إذن، ستكون جميلة وكأنها طقم واحد. كنتُ من سعادتي سأحلّق فرحاً، ولكني سعيت لإخفاء فرحتي كي يشعر أنّه يقوم بواجبه، لا أن يتخيّل أنّه يقدم لي مَكرمة، ويمُن عليّ. وقضيت كلّ هذه الأعوام من عمري لأعرف أن الفاصلة بين العمل والكلام كبيرة، ولذلك عندما أراد مسيو خوان الذهاب، كرّر الموضوع ولم أعتنِ بالأمر، لأني لن أنزعج إن لم يقم به.

Twitter: @ketab_n

-٥-

عندما تجرأت وكتبت لوالدي أني لا أريدُ دخول الطب، بل أني دخلت فرع الأدب، وأي أدب؟ إنه أدب أطفال! عندها لم يسكت فقط عن ذكر موضوع بيع جاكيته، بل لم يجب على رسائلي مطلقاً، وإن كانت رسائله كلها تحمل في نهايتها تقريراً مفصلاً عن أسعار العملة.

وفي الصف، لم أكن مع الدرس، بل مع جاكيت والدي؛ مع اقتراحه لبيع جاكيته، ليظهر اهتمامه البالغ بي وبإكمالي لدراستي. ولكن، ماذا لو تراجع والدي عن بيع جاكيته، وقررت أمي بيع شادورها؟

عندها سيحكم على أمي بالذهاب إلى جهنم ثمناً لدراستي، وليس من الإنصاف تركُها لتدخل جهنم من أجلي. إذن، من الأفضل أن يبيعَ والدي جاكيته، إذ أن تحمّل وطئتِها هو أقل وجعاً بكثير، وأقصى ما سيحدث له هو إصابته بالزكام وبالتهاب رئوي مزمن، و-لا سامح الله- سيفتح له درباً على مدار العام للعيادات، ومن الأفضل ألا أكمل البقية؛ وفي هذه الحالة، أليس من الأفضل أن تبيع أمي شادورها؟

لأن العواقب ليست موثوقة. من جاء من تلك الدنيا بخبر؟

على حدّ علمي لا أحد، ومن الممكن أن يعفو الله عنها، ولكن في هذه الحالة، ألا يصبح فقدان الإيمان من أجل تلبية طلبات الأبناء كارثة؟ يعني وضع الأبناء في كفّة واحدة مع الله، ألا يوصل هذا الأمر إلى الشرك؟ إذن، لن يبقى لنا إلا الإبقاء على بيع الجاكيت كحلّ أول وأخير.

لا يمرّ يوم لا أسأل نفسي فيه: "لماذا استعجلَ والدي في التفكير

Twitter: @ketab_n

ببيع جاكيته، في حال أن لديه ما يغنيه عن بيعه؟" مثلاً البيت الذي لم يكتمل بناؤه بعد، وتبلغ مساحته ثلاثمائة وعشرين متراً في شارع أميرية، أو قطعة الأرض ذات الألفي متر التي اشتراها في الفترة الأخيرة والواقعة في كلندوك، أو أحد الكراجين اللذين تبلغ مساحتهما بين الستين والثمانين متراً، ويبعدان محطتين عن محلة الآذرية في شارع خيام، والتي حصل عليها تسديداً لدين شخص لم يعُد يملك مالاً، أو الأرض ذات الثلاثة آلاف متر في رشت، أو..

ومع أني آخر العنقود، ولم يعُد والدي بحاجة لبيع ثيابه لأكمل دراستي، قطعت عهداً على نفسي إن أردت في يوم أن أشتري جاكيتاً وبنطلوناً لوالدي، سأحرصُ على أن يكونا صالحَين للبيع فيما بعد.

Twitter: @ketab_n

-٦-

كان الدّهان من البرتغال، وبإمكانك التعرف عليه من نظرة واحدة لوجهه المدور المخلوط بين البياض والحمرة. لم يكن سميناً، لكنه كبير الجثة، عريض الصدر، كبير المعصمين واليدين، فضخامة كل أصبع من يديه- أقولها غير مبالغة- هي بحجمَ يدي. ورغم ذلك، لم يكن لديه ميل إلى العمل، وغالباً ما كان يشتكي، ويأتي كلّ يوم وهو أكثر كسلاً من اليوم الأول، فيشير إلى الجدران، وبيده دلو الدهان والفرشاة، ويصرخ: عاهرة هذا الجدار.. عاهرة هذا الدهان..(*)

مع ذلك، كانت صديقته عاهرة..

ينظر إلى طلاء الغرفتين كما لو لم يكن هو الذي دهنه، ولا ينفك يكرّرها عالياً:

"عاهرة".

وكلما كان يتكلم عن الأمر، يلقي نظرة اشمئزازٍ على كلّ من حوله. ينظر إلي، وينظر بغضبٍ إلى الجدران وكأنّها قاتلة أبيه. ومنذ اليوم الأول، حدّد وقت عمله، وهو العصر. ولأنه يتحدث الفرنسية بصعوبة، فكان يتهكّم على طريقة حديثي معه، وكلما تكلمت معه، حرّك رأسه إلى اليمين واليسار قاصداً عدم فهمه لي، وأنا بهلعي أحاول أن أحسن من أدائي للغة الفرنسية، ولكنه مُصر على أنه لا يفهم مما أقوله حرفاً، وفي النهاية، وليوضح لي الأمر، يأخذ بالإيماء، ويشيرُ بإصابعه الكبيرة التي يصل حجم كلّ واحد منها إلى حجم أربعة أصابع طبيعية، ويشيرُ لي بأربعة أصابع مع

(*) Purai mur. putain coleur. Putain..

Twitter: @ketab_n

إشارة إلى ساعته الذهبية قاصداً ألا أنتظره قبل الساعة الرابعة، ولكنه حتى الساعة السادسة لا يأتي، وعندما يصل، لا يعيرُ أي اهتمام لأصابعي الأربعة المشهورة في وجهه. يأتي، يحرك رأسه في الجهات الأربع، مُحدّثاً الجدران والأبواب بغضب، صارخاً:

"ألا يوجدُ في هذا المكان اللعين قهوة؟"

أذهبُ مسرعة إلى آلة إعداد القهوة. أعرفُ أنه إن لم يحتسِ فنجانيَ قهوة، لن يُمسك الفرشاة، وآمل قبل أن يترك المكان أن يعمل ساعتين.

ومع أول علامة لقدوم الليل، يترك العمل. يجمع عينيه الصغيرتين هازاً رأسه تأسفاً، ما يعني للأسف، للأسف الشديد، أن الليل جاء مُسرعاً، ولا يستطيع إكمال عمله لأنه لا يرى الجدران، ولإفهامي، يشير بسبابته إلى الجدران، وإلى عينيه، والفاصلة بينها، ويترك كل شي ويذهب ليستبدل ثيابه.

لا يهمّه التنقل من بيت لآخر وهو على هذه الحالة البائسة؛ شَعر وسخ وثياب رثة. لا يهمه حتى وإن ذهب إلى قصر ميتران،(*) بيد أنه الآن في أشدّ حالات غضبه، لأنه سيذهب إلى حبيبته بثياب العمل.

عندما يحين وقت ذهابه، يتحول فجأة إلى إنسان آخر، إنسان سعيد ونشيط، ويشرعُ في الغناء بصوت عالٍ، ويصفر. يأخذ أولاً وجهه ملامح أخرى أكثر ضياءً، وبقفزة يوصلُ نفسه إلى حقيبته التي يضع فيها ثياب العمل، ولكنه دائماً، وقبل أن يُخرج ثيابه، ينزعُ بنطلونه أمامي، وفي كلّ مرّة يفاجئني بهذه الحركة السّريعة، تصحبُها ضحكة صاخبة، عارضاً جسدهُ الرجولي بشورته المقلّم بخطوط زرقاء وصفراء. يقفُ أمام المرآة ويصفر بصوت عالٍ، مُمشّطاً شعره، ورغم تأكده من عدم انسجام تسريحة شعره مع وجهه، إلا أنه يجرّبُ موديلات أخرى، ثم يسحبُ نفسه من أمام المرآة، ويخرج كما دخل من غير كلمة وداع.

---

*) وقعت أحداث هذه الرواية في زمن رئاسة ميتران.

Twitter: @ketab_n

-٧-

حدّق صاحب النزل في الباب، وقال:

"هل هناك أحدٌ في الداخل؟"

ظننتُ في البداية أني مُخطئة، من الممكن ألا يكون الصوتُ لصاحب النزل، أيّ شخصٍ آخر غيره خلف الباب؟ ومن المُمكن ألا أحد يطرق بابي، قد يكون اختلاط الأصوات الذي اعتدنا عليه وهو يأتي من الغرف العلوية، ولأنها صغيرة جداً، فإنها تُشعرني كما لو أنّ الباب المطروق هو بابُ غرفتي.

ولكن، عندما تكرّر الطرق، ارتديتُ الروب بسرعةٍ مُخفية تبعثر شعري، وأوصلتُ نفسي بسرعة إلى الباب. أعرف مسيو خوان جيداً، هو أكثر مني مَللاً. ما أن فتحتُ الباب، حتى قال بلا مُقدّمة:

"هل تريدين أن تَحصلي على مكتبة؟"

تفاجأتُ وظننتُ أني أخطأتُ السّمع، ولكنه بقي ينتظرُ إجابتي، وكما هي العادة، وقفَ غير مُبالٍ، عندما رأى أنيّ أنظرُ إليه مُنصدِمة، ولم أجبه، تخلّى عن هدوئه، وقال غاضباً:

"ألم تسمعي ما قلته لكِ؟"

"طبعاً سمعت".

"إذاً، لمَ لا تجيبي؟"

"أجيبُ على ماذا؟"

Twitter: @ketab_n

"قلتُ لكِ: هل تريدينَ أن تملكي مكتبة؟"

"لأيّ شيء؟"

"لأي شيء؟ لأي شيء؟ للـ.. لكي تَضعي فيها الكتب. هل هُناك وظيفة أخرى للمكتبة؟ أحسبُ أنك تُخصصيها للمواد الغذائية، مثل السمك المشوي، أو اللحم المقلي.. ها؟"

كلّما أكثر من الكلام، كلما أصبح أكثر حدّة، وأكثر اهتزازاً. لعابه ينساب وغضبه يتّجهُ نحوي، وكأنّهُ يَعلك كلماته، فتصبح جملهُ متداخلة ببعضها؛ نصفها إسبانية، والنصف الآخر فرنسية، وأنا من شدة انزعاجي يصيرُ مقدار فهمي للغة هو على قدر عَدم فهي لها. ومع ذلك تظاهرتُ أن الامر عادي، وصاحب النزل يمزحُ معي، وهو لا يقصدُ إهانتي- لا سامح الله- ودخلتُ في نوبة ضحك. لو عرف أن حديثهُ أزعجني، عندها لانتظرَ أن أجيبهُ بلحنٍ آخر، وكلّنا يعرفُ أن صاحب البيت لا يمكن الحديث معه بلحنٍ آخر، لأنه حينها لن يكونَ لدينا بيت، حتى يكون لنا صاحبُ بيت.

Twitter: @ketab_n

-٨-

وإن لم أكُن بذكاء سالي، إلّا أني عرفتُ منذ البداية أنّ هذه الكلبة لا تُحبني. لا أعرف لماذا، ولكني كلما أعبرُ الباحة، أواجه منعاً للمرور. فما أن أضع المفتاح في القفل، حتى أجد هذه الكلبة مُتسمّرة أمامي، تحدّقُ في عيني مُباشرة، ولا تسمحُ لي بالعبور.

في البداية لم أعتنِ بها، ثم تظاهرتُ بأن الأمر طبيعي، فأغير طريقي. بعد ذلك قررتُ استخدام وسيلة خشنة معها، ولكن لا فائدة من ذلك، فسالي لا تسمحُ أن أخطو إلى الأمام خطوة واحدة، أينما وجّهتُ وجهي تتعقّبني، ويبقى الحال كما هوَ عليه؛ مُراقبة من كلّ الجهات. أحياناً، بدلاً من أن أذهب مباشرة إلى الغرف، مُجبرة أن أغيّر طريقي، وهذا الالتفافُ يُصعّب الأمور أكثر، إذ عليّ الآن أن أقطعَ طُرقاً أطول في حربي مع سالي، ولا يجدي حديثي المطول معها، وقليلاً قليلاً أحسستُ أن سالي انضمّت إلى الذين لا يفقهون حرفاً من فرنسيتي، ووصل الأمر إلى التحدث مع المسكينة باللغة الفارسية. وإذا كانت سالي أذكى مني، وهي أذكى بالتأكيد، ففي المُدّة التي لم أتقِن بها الفرنسية، ستتعلّمُ هي اللغة الفارسية، وستفهمُ ما أقوله لها:

"عزيزتي سالي! دَعيني أمر.. أنا مُستعجلة جداً".

"عزيزتي سالي! قلتُ لكِ أنه لا وقت لدي للعب معك. دعي اللعب فيما بعد، حسن؟"

أتوسّلها:

Twitter: @ketab_n

"سالي! تو رو خدا (*) أنا مُتعَبة، جائعة، لديّ عمل أقوم به".

أعيدُ جملي بألحان مُختلِفة للكلبة، وأذكرُ لها حجّة بعد حجّة، آملة على الأقل أن تتجاوب مع إحدى الحجج.

عينٌ على سالي، والعين الأخرى على مسيو خوان.

جلس مُسترخياً على كنبة كبيرة بجانب المدفئة، مُمسكاً بكتاب. يقطنُ صاحب النزل شقّة فيها غرفتان في الطابق الأرضي، وهي أصغرُ شقة من بعد الغرف والسويتات، كي يؤجّر لمجموعة من الأغنياء في الطابق السابع. وقد تمرّ أعوام ونحن لا نراهم، لأن الأبواب المؤدية للشارع تختلفُ عن أبوابنا؛ تختلفُ بشكلها وبإطلالتها.

شقّة مسيو خوان، البالغة واحد وثمانين متراً، ذات نوافذ كبيرة وتطلّ على السّاحة، ويقضي هو كلّ يوم ساعتين في العناية بالورد والشجر، قابضاً على مسحاة صغيرة، مُتنقّلاً في جوانبها. ويقضي بقيّة يومه في غرفة الجلوس؛ يجلس على الكنبة ذاتها التي وضعت لها اسم "كنبة التكاسُل"، وهو لا يفارقه غليونه.

لو لم يكُن إلى هذا الحد كبيراً في العمر، وأذناه ثقيلتا السمع، وتوقّفَ التقاطها للأصوات، لسمع ضجّة جدلي أنا وسالي. ولكن، للأسف، لا حركة أو ردّة فعل تأتي منه، وعندما يرفعُ رأسه بتأنٍ عن الكتاب، ويلقي علينا نظرة، ويجدنا أنا وسالي نتبادلُ الحركات والأماكن حوله، يظن أنّنا نلعب، فيبتسم بتثاقل.

لماذا لا ينتبهُ مسيو خوان إلى حركتي غير الطبيعية؟ قد يكون الحق معه، فلديّ من الحركات غير الطبيعية الكثير، وما يكفي لتكون هذه من الوزن الخفيف. أعرف أنه لا يجبُ الاعتماد على مسيو خوان، فهو يبعُد عني، وعن الوضع الذي دخلتُ فيه، سنوات ضوئية، ولا يُمكنه حتى تصوّر

(*) تعني بالفارسية "بحق الله".

Twitter: @ketab_n

ما أنا فيه من رُعب، خاصة وأنا أقهقِه- وهو ما اعتدتُ القيام به عندما يفرضُ عليّ أمراً- وسالي تُحرّك لي ذنبها.

أبحثُ حولي عن يد العون؟ الزقاق موحش، والسماء تُمطر بخفّة، وصوت نقرِ على جسد شجرة يأتيني من قريب، وهو الصوت الوحيدُ الذي أسمعه.

Twitter: @ketab_n

-٩-

مكانُ تنزهي وسياحتي طوال إقامتي في بلد الحرية هو مقبرةُ "دولا شيز"، وقبر "صادق هدايت"(*)، وعادةً ما أكونُ هناك في أعياد النوروز، والمكان الآخر هو مسجد باريس. أكبرُ مسجدٍ في باريس بنتهُ عائلة آل سعود، إذ فيه غرفٌ كثيرة، وساحات كبيرة وصغيرة، وأرض مُعشبة وأشجار مَتروكة، فهو المكانُ الوحيد لتجمُّع المسلمين، وهناك فناءٌ كبير مَفروش بالرخام مُتعدّد الألوان.

أبقى جالسةً أنتظر من يمر ويبدأ حديثاً معي. أتابعُ الأبواب والجدران، وعندما أملُّ، أستغلُّ الوقت وأصلي صلاة الصبح قضاء، وصلاة الأسبوع الماضي، وأحياناً أصلي صلاة أشهر حتى أصفّي حسابي مع الله، وبعد ذلك أذهبُ إلى مكان إعلان الوظائف الشاغرة. لوحة الإعلانات مملوءة دائماً بطلبِ العمل، أو وظائف شاغرة، وكلا الأمرين موضع اهتمام المسلمين المقيمين. قبل فترة، وجدَت صديقة لي من السودان- عن طريق لوحة الإعلانات- عملاً كجليسة أطفال لأمير سعودي، وأنا أنتظرُ أن أحصل على عملٍ مُشابه، فأزورُ لوحة الإعلانات. مع ذلك، لم أكُن في يومٍ إنسانة مَحظوظة، الحقيقة ليس إلى هذا الحدّ أنا لستُ مَحظوظة، ولكني أعرفُ بأنّه لا حظّ لي بهذا الحجم، ولن تكون من نصيبي هكذا أعمال.

عندما وقع نظري على الإعلان، ضحكتُ في البداية، عماذا كنتُ أبحث وماذا وجدت. استغفرتُ ربي، وتابعتُ بقية الإعلانات، ولكني كنت

---

*) روائي إيراني شهير، له رواية البومة العمياء، انتحر في باريس في الأربعينيات من القرن الماضي وهو مدفون في باريس.

Twitter: @ketab_n

أفكّر في الإعلان الاول، حتى عند عودتي للبيت وفي عطلة آخر الاسبوع، والنتيجة وبلا وَعي مني، وبعد انتهائي من الصفّ في يوم الاثنين، ذهبتُ إلى المسجد، وفي الأوقات العادية يُفضي طريقي إليه، لأنّ هذا المكان هو ساحة لتجمُّع المسلمين. أعرفُ لِمَ قصدتُ المكان، ولأيّ سبب، ومع ذلك لا أجرؤ على لفظِه، ولا أجرؤ أيضاً على التفكير فيه، وما أفعلهُ هو الإقدام.

Twitter: @ketab_n

-١٠-

صَمتي زادَ صاحب نزلنا حدّة وصراخاً، خاصة عندما أحسّ بابتسامةٍ هربت جراء سوءِ فهمي له، فتطاير الشّرر من عينيه، وقال زاعقاً:

"لماذا تضحكين؟ هل قلتُ ما يضحك؟"

"لا".

"إذاً، لمَ تضحكين؟"

"هكذا".

"وهل هُناك ما يضحكُ بلا سبب؟"

"لا قصدتُ أن.."

"أحسبُ أنكِ تضحكين علي؟ ها؟"

"لا! أقسم بالله".

"هل تظنيني مزحة لكِ؟ هل ظننتي أنّي عجوز أحمق؟ عجوز أحمق ومجنون؟"

رمى جملتهُ وهو يترنّحُ يمنة ويسرة. لو كان مظهره غير مُضحكٍ مع هذه الحركات، لأصبح مُثيراً للضحك، وأنا لا أقدر على الضحك أمامه، بل أريد البكاء والتفجّع. احترتُ كيف سأتعاملُ مع هذا الوضع.

عندما يُستفزُّ العجوز، يتحوّلُ إلى إنسانٍ بلا رَحمة، وأقصدُ هُنا كلّ ما

Twitter: @ketab_n

تحمله هذه الكلمة من معنى، رغم أنه طيب جداً، وأعرفُ أنه يحبني كثيراً، ولكثرة تكراري لهذه الجملة لم يعُد باستطاعتي احتمال لسعاتِ لسانه، وتحوّل هذا المشهدُ، بسبب تكراره، إلى رصاص، بل إلى شجرة اخضرّت على لساني، مُحمّلة بالرصاص.

يمتازُ صاحب نُزلي بقدرتهِ على الثرثرة، فهو يتكلّم إلى يوم الدين، فما إن يشعر بأقل سوء فهم، حتى يُبدي آراء عديدة بالحدّة ذاتها، قافزاً إلى الاعلى مُحرّكاً يديه ورجليه، غير أنه، ومن حسن الحظ هذه المرة، لم يستمرّ في ذلك، فدخلَ إلى شقتي بلا دعوةٍ مني، وبإشارة مُختصرة من يده اليمنى أقصاني إلى الزاوية، وبإشارة أخرى من يده الثانية أشارَ إلى شابٍ وقف في الممرّ طالباً منه التقدّم.

كانت المكتبة واقفة مُنتظرة في الخارج، فأمرها بالدخول، وعندما صدر منه الامر، احتلّت المكتبة بعد دقائق مكانها في الغرفة؛ مكتبة جميلة وقوية، لم تكن مُستعملة؛ نظرة واحدة كفيلة لمعرفة أنّها جديدة. من أين يأتي مسيو خوان بمكتبة مُستعملة؟ لم أر أبداً شيئاً شبيهاً بها في نزله، فمكتبتهُ أكبر بكثير من هذه، وعمرها لا يقلّ عن قرن. رفوفها خشنة، ولا يمكن رؤية أشباهها إلا في الأفلام الكلاسيكية.

وقفتُ في الزاوية التي حشرتُ فيها، وتركتُ القدر يسيرُ كما يشاء، على أيِّ حالٍ سوف يُنفّذ ما يدورُ في رأسه، إذاً لماذا أعذّبُ نفسي؟

"إلى الزاوية".

Twitter: @ketab_n

-١١-

كان الدهّان يتعامل معي وكأني لستُ موجودة؛ عندما يمشي في الغرف ويريدُ استخدام الطلاء الداخلي للجدران، أو عندما يُصيبه العطش، يذهب إلى آلة إعداد القهوة، أو عندما يريد إشعال سيجارته أمام النافذة، أو في أعماله الأخرى، ما عليّ إلا التنحي عن طريقه بصورةٍ آلية، إذ من الممكن أن أرسل إلى مكانٍ قصي، إذا لم أبتعِد، لأضيع فيه إلى الأبد.

ورويداً رويداً، وصل الأمر به إلى عدم التحدث معي باللغة الفرنسية، بل بلغته البرتغالية. يقول كلّ ما يوده أن يقوله، وأبقى أنا فاغرة فمي بهلع. فقد كان يتوقع أنّ رفقتي لبرتغالي بضعة أيام كافية للتحدّث معه بلغته.

لم أعُد أستطيعُ احتماله، خاصّة أن صباغةِ غرفتين أخذَت كلّ هذا الوقت. كدتُ أنفجرُ غضباً. في أحد الأيام، عندما قصد الدهان آلة إعداد القهوة، وقفتُ غير آبهةٍ به، قد يظن أني لم أفهم ما يسعى إليه، جمع قبضة يده الكبيرة وقرّبها من فمه، وقال:

"coffee. Coffee"

أجبتُه باللغة الفارسية:

"تشرب سم"

عقف حاجبيه، وقال:

"Mais vous dites quoi? je n'y comprends rien"(*).

*) "ماذا قلت فأنا لم أفهم شيئاً"

Twitter: @ketab_n

وبعد مرور ثلاثة أيام لم ينطق فيها إلا اللغة البرتغالية، عاد إلى اللغة الفرنسية، ولكني أعدتُ عليه الجملة ذاتها، وباللغة الفارسية.

إذا كان يتوقّعُ مني أن أتعلم اللغة البرتغالية في بضعة أيام، لماذا إذن لا يتمكّنُ هو من التحدُّث باللغة الفاريسة؟ من الواضح أنّه لم يفهم شيئاً من حديثي، إلا أنه أدرك أن هذا اليوم يختلفُ عن الأيام الماضية. في البداية انزعج، وأظهر ذلك، لكنّهُ عاد إلى العمل حتى السّاعة الثامنة مساء.

بعد انتهائه من العمل، لم يُغافلني مثلما يفعل كلّ مرّة عند اقتراب رحيله. أعلن عن نفسه، ولم يدر بخلدي أن أبعد عيني، حسمت الأمر، ومهما سيحدث لن أتراجع إلى ما كنّا عليه، أريدُ رؤيته عارياً كما ولدتهُ أمه. في البداية، ظنّ أني مُعجبة بجسده الرجولي، رسمَ بسمة عريضة على وجهه، ولكنه اصطدم بنظرتي الباردة والفاقدة لأيّ روح؛ عذبته، عندها أعطاني ظهره، وهو يُقدّم اعتذارهُ المتقطّع، وبدّل سرواله. ولا أظن أنّهُ سيذهب إلى putain (ته) بحالةِ العجز التي سكبتُها عليه.

في اليوم الثاني، وعند الساعة الرابعة عَصراً، أطلّ الدهّان البرتغالي عليّ.

Twitter: @ketab_n

-١٢-

في الواقع، كانت عاطفة ميسو خوان أقرب إلى عاطفة دب. وإن كانت صديقة المسيو خوان أقرب إلى الخالة الدبة، حتى أن عاطفتهُ تختلف عن البشر الآخرين، وهو الآن غاضب، ويصرخ:

"ماذا هُناك؟ ألا تحبين تناول العشاء معي؟"

"طبعاً أحبّ ذلك".

"إذا ماذا دهاكِ؟ تُحبين تناول العشاء معي، ولكنكِ ترفضين دعوتي! هل تسمحي أن توضّحي مَعنى ذلك؟"

معناه هو أنه ليس من الصحيح ما أن يدعوني رجلٌ أقبلُ دعوته، وكأني أنتظر دعوته منذ أعوام. سعيتُ أن أوضّح إلى مسيو خوان، أنه وطبقاً لعاداتنا وتقالدينا، يجبُ عليه أن يَدعوني مرات ومرات، حتى أطمئنّ أن دعوته جدية، وأنّهُ جاد في دعوتي إلى بيته.

بقيَ مسيو خوان للحظات صامتاً، ثم انفجرَ ضاحكاً، هل يضحك عليّ، أم على عاداتنا وتقاليدنا؟ لم أبقَ بعيداً عن مَعركة الضحك، فشاركتُه الضحك مثل بَلهاء.

قال مسيو خوان أخيراً:

"حسن، هل تأين أم لا؟"

طبعاً سآتي، وسَعيدة أيضاً، ليس كثيراً ولكني لم أبُح بذلك له. ما يجعل

Twitter: @ketab_n

الأوقات مُملّة إلى جانب مسيو خوان هي سالي، إذ طوال فترة جلوسي تدور حولي، ويشاركُ المسيو خوان في إضفاء مللٍ آخر، وهو يتوقّعُ مني تأييد كلامه دائماً، وفي جميع الأوقات، حتى أنّه لا يحتمل أقل مُعارضة له. أما مشكلتي الأساسية، فهي أنا النكدية، فأشعرُ بمن يطالبني بالامتثال له، كأنّما يخيطُ شفتي ويلفّني صمتٌ قاتل.

"على فكرة، أردتُ أن أقول لك.."

"ماذا؟"

"وددتُ أن أعرّفك على شخص".

"من؟"

"تعرفين أني لا أحب التفافكِ على الأسئلة؟"

"نعم أعرف، ولم أفعل ذلك".

"إذاً، لا تفعلي".

"حسن".

"ما يجبُ أن تعرفيه هو أنّه من أبناء وطننا".

"من أبناء وطني أم وطنك؟"

أخذ صاحب النزل يلقي عليّ نظرة باردة بدلاً من أن يُجيب، فعلى حدّ تعبيره عدتُ إلى الالتفاف حول السؤال، مع ذلك لم أسألهُ أكثر من سؤالٍ واحد.

ما أن غادر مسيو خوان الغرفة وأغلق الباب حتى ندمت، ليتني لم أقبل دعوته.

لو كان المواطنُ من أبناء وطن مسيو خوان، لما كان للأمر أهمية، ولكن

Twitter: @ketab_n

ماذا لو أرادني أن أتعرّف على أحدِ أبناء وطني؟ وما الذي فكّر فيه مسيو خوان، أنيّ سوف أسقطُ مغشياً علي ما أن أرى أحدَ أبناء بلدي؟ لا، لن يحدث ذلك. نحن الإيرانيين ما أن نقف بجانب حقائبنا في المطار، لا نعود نعرفُ أحداً، وإذا التقينا صُدفة في المهجر، نلتصقُ باللغة الأجنبية حتى نتبرأ من إيرانيتنا، أي يا بلدي يا بطيخ؟

لا يأتي من صاحب النزل إلا وجعُ الرأس، ليتني لم أكُن هنا، أو على الأقل كلّ هذه الفترة، لماذا لم يخطر ببالي تغيير مكان سكني؟

Twitter: @ketab_n

-١٣-

كان المسجد خالياً، ولا أحد أمام لوحة الإعلانات، مع ذلك خجلتُ من الذهاب مُباشرة إليها. ألقيتُ نظرة عابرة على الإعلان حتى أطمئنّ أنهُ في مكانه، فرحتُ في البداية أن أحداً لم يخطف العمل. خفتُ من فقده، وما زلت قلقة، لو أنّهُم وظّفوا أحداً، لأجبرتُ على تناسيه.

قرأتُ الإعلان هذه المرّة بدقة أكثر، كُتب في أعلى الصفحة بخطٍّ عريض: "بسم الله الرحمن الرحيم"، وجاء بعدها باللغة الفرنسية توضيح بصدد شروط العمل.

بعيداً عن نوعية العمل، ورداءته، واسم الوظيفة، كانت شروط العمل لا غبار عليها؛ خاصة الراتب، فقد كان أربعة آلاف فرنك لعشر ساعات عمل في الأسبوع. في اليوم ساعتان، يبدأ العمل بين الثالثة والخامسة عصراً، ويوما الثلاثاء والأحد عطلة، وإذا ما خرجنا إلى العمل في أوقات العطل يتضاعفُ الراتب مرّتين. علي إذن أن أحفظ رقم الهاتف، غير أن ذاكرتي لا تُعينني، فاضطربتُ وتحوّلت أمعائي إلى فرن، كرّرتُ الرقم في ذهني مرات ومرات، وعندما أردتُ استرجاعه من ذاكرتي تلاشى. صمّمتُ هذه المرة على كتابته، ونظرتُ حولي مُرتبكة، لا أحد هُنا ولكني شعرتُ بعنق يمتدُّ إلي ويراقبني. خجلتُ من الوقوف وكتابة الرقم، لذلك مررتُ من أمام اللوحة خمس أو ست مرّات، وفي كلّ مرّة ألقي نظرة على الأرقام، ولكني لم أتأكد من كتابتي للرقم بصورةٍ صَحيحة. ذهبتُ إلى أقرب هاتف

Twitter: @ketab_n

وضغطتُ على الأرقام، لا أدري ماذا أقول أو أجيب، أي مكانٍ سأسأل؟ فاجأني صوت دافئ ورجولي من الطرف الآخر، وقال بصوتٍ ثابت:

"مقبرة أم النبي".

قطعتُ الاتصال مُباشرة.

Twitter: @ketab_n

-١٤-

من بين جيراني، ثمّة فتاة هندية، كانت سمينة وضخمة، وعندما ترتدي زيها الوطني- أقصدُ الساري- لا تملّ مدح الهند. وعندما ترتدي الجينز قاصدة السفارة الامريكية، تفيضُ مدحاً لأمريكا. على أيّ حال لا تعجبها فرنسا، ولتدللَ على انزعاجها، تمدُّ شفتيها الكبيرتين وتصفُ كلّ ما أمامها من باب وجدران وغرف وحتى البشر بـ"Merde[*]"، صباحاً تقول: "خراء"، عند العمل تقول: "خراء"، في تسكّعها تقول: "خراء"، في الممر تقول: "خراء"، في المصعدِ تقول: "خراء". وهو أمر طبيعي، إذ شاعَ في تلك الفترة التبرّم من فرنسا، رغم أن الجميع يلهثُ خلف إقامة لعشرة أعوام أو على الأقل لعام.

اسمُها بوجا، أو هكذا ظننت، يا لها من لغة إنجليزية يتحدّثُ بها هؤلاء الهنود، والآن هم يُحاولون مع الفرنسية! وأنا لا أفقهُ حرفاً من لغتهم. على أي حال، إذا تحدثوا بأيّ لغة، يجب أن تتعود عليها. في البداية، يمضغون الأصوات جيداً بين أسنانهم البيضاء، ومن ثم يقذفون بها في وجه من وقف يستمع لهم.

تقعُ غرفة بوجا في نهاية الممر، وتقعُ غرفتي قبل المنعطف. لم يكن لدي سببٌ لأكمل الطريق، ولكن بوجا تقطعُ في اليوم الواحد الطريق مشياً أكثر من مرّة، أو تستخدمُ المصعد للذهاب إلى الحمام. وكلما خرجَت من الغرفة أصطدمُ بها.

---

*) تعني خراء بالفرنسية.

Twitter: @ketab_n

-١٥-

لم يكُن المسيو خوان أميّاً، إذن لم لا يستطيعُ فهم أن إيران وأفغانستان هُما دولتان، وليستا دولة واحدة، لماذا لا ينبس هذا الرجل الأفغاني نعيم بكلمة؟ حسن، لو كنت مكانه لما ذكرتُ له شيئاً، وإنه بالتأكيد كان قد طلب من الله أن يكون الأمر هكذا. وبالطبع أن تكون إيرانياً ليس أفضل من أن تكون أوروبياً، ولكن أن تكون إيرانياً أفضل من أن تكون أفغانياً. وكان السكوت في صالحه، ومن الممكن أنه لا يجيد الفرنسية، ولكن حتى لو يكن قادراً على التكلم بهذه اللغة- على حدّ تعبيرهم، لم يكن قادراً على أن يدردش بها- أما كان بإمكانه أن يشرح موقفه بالإشارة أو الإيماء؛ مثلاً يضربُ على صدره ويقول: "أفغاني، أفغاني".

والشيء الوحيد الذي يشغلُ نعيم بجفنيه المتعبتين، هو أن يسحب أنفاساً عميقة من سيجارته ثم يرفع رأسه إلى السماء، ويقذف الدخان بقوة، وكأن هذا الدخان لا نهاية له، ثم تذهب محاولاته في إبعاد الدخان عنا سدى، لأنه فيما بعد سيعود الدخان كله ويلفنا نحن الثلاثة، ومن ثم سيلف سالي الأقصر منا جميعاً.

"لكنكم تتكلمون بلغةٍ واحدة".

"لا، ليس إلى هذا الحد. صحيح أن لغينا مُتقاربتين، ولكنّهما ليستا لغة واحدة".

"إذن، في هذه الحالة تفهمون لغة بعضكم البعض".

"لأنّ هُناك مشتركات لغوية كثيرة".

Twitter: @ketab_n

"إذن، لغتكم واحدة".

"لا ليست كذلك، بل المشتركات كثيرة".

"ماذا يعني هذا؟"

"الكثيرُ من مُفرداتنا مشتركة".

"ماذا عن قواعدكم؟"

"تقريباً واحدة".

"هل رأيت الآن؟ لماذا تُصرّين؟ مُفرداتكم واحدة. قواعدكم واحدة، إذن لغتكم واحدة. مذهب واحد. عاداتكم واحدة. ما يعني.. في الواقع، إنكم أبناء وطن واحد. الآن من الممكن أن يكون أيّ واحد فيكم إيراني أو أفغاني، لا فرق بينكما".

Twitter: @ketab_n

-١٦-

عصراً، رفع السماعة صاحب ذلك الصوت نفسه. الصوت الوقور ذاته. عرفتُ بعد يومٍ أنه غاسلُ أموات، وكنتُ أظنُّ حينها أنه رئيس المكان الذي يُغسَل فيه الأموات. في اليومِ الأول، سألَ عن جنسيتي، ومتى دخلت إلى فرنسا. عندما ذكرتُ جنسيتي، رحّب بي بحفاوة. فيما مضى، عندما أجيب على سؤال مُماثل، هناك ابتسامة باهتة على وجوه السائلين. إذن، هُم يعرفون إيران، وإن لم يتعرّفوا عليها فهُم يَسألون: "إيران هيَ العراق؟" كيف سأوضّح الأمر لهم؟

كنا للبعض أفغانيين وللآخرين عرباً، ونحنُ بعيدون كلّ البعد عن البحث في أصلنا ونسبنا.

كنت أرجّحُ أن أؤخر لقاءنا إلى الاسبوع المقبل، أو بعد أسبوعين، وحتى لو أمكن لأخرناه أكثر من ذلك، ولكن الرجل قال لي:

"من الأفضل أن نلتقي في أقرب فرصة، لأننا في عجلة من أمرنا".

"هل أنتم على عجلة؟"

"نعم، لدينا عملٌ كثير. تعرفين، عادةً في مثل هذه الأيام المراجعون.."

لم أعطهِ فرصة ليُكمل جملته، فلو أكمل الحديث عن طبيعة عمله، لأدخلني في دوائره الصغيرة، وقد أتراجعُ، ولن أضعَ رجلي مرّة أخرى هُنا. اتّفقنا على لقاءٍ يوم غد، وقبل أن أتراجع عن قراري أنهيتُ الاتصال.

بقيتُ مُستيقظة طوال الليل، لكني لم أتحرّك من مكاني، وأنا عادة،

Twitter: @ketab_n

إذا ما كنتُ مُستيقظة، ألتفُّ مثل دودة. في صباح ذلك اليوم، عندما نظرت في المرآة، خفتُ من الذهاب إلى موعدنا. خفتُ أن يُخطئني غاسلُ الأموات ظاناً أني منهم.

Twitter: @ketab_n

-١٧-

كيف لا يختلفُ الأفغاني عن الإيراني؟ هذا المسيو خوان الجاهل لا يعرف عنّا شيئاً. إذا كان الأفغاني لا يختلفُ عن الإيراني، إذن ليس هناك اختلاف بين الإيراني والتركي، ولا فرق بين التركي والأوروبي، والنتيجة هي أن لا فرق بين الإيراني والأوروبي، وعلى هذا أنا لست إيرانية بل أوروبية. وددتُ أن أقول لمسيو خوان حُججي لأرى تأثيرها عليه، ولأرى هل سيقبلُ بكلّ رحابة صدرِ انتمائي إليهم كما يفعلُ الآن مع هويتي؟

"انظُر. طبعاً أعتذرُ بداية ولكن.."

"قولي ما لديك".

"حسناً، أعتقدُ أنك لا تدرك ما تقوله جيداً".

"ماذا تقصدين؟"

"أقصدُ أنك لا تعرفُ الهوية الأفغانية، لذلك تخلطُ بيننا مع..؟"

"إذن، بما يختلفون عنكُم؟"

نعيم مشغول بتقليب أوراق كتاب، وكأنه بعيد عنا أعواماً ضوئية، كم يشبه المعوقين؛ برأسه الصغير، ووجهه الفأري، وشاربه من شدّة هزالته، لا فرق بين وجوده أو عدمه. إنه طويل، وقد اتّخذت عظامه شكل حرف z على الكرسي. كان قد لفّ نفسه في جاكيت وبنطلون رمادي اشتراهما اليوم، رغم أنّها لم تعُد من الموضة. الشيء الوحيد الذي يجذبك في هذا الرجل هو يداه؛ بأصابعه الطويلة والرقيقة. سعدتُ من أجله لأنه لم يكن

Twitter: @ketab_n

من الأفغان الذين كتب عليهم المرور من إيران، لأن هذه الأصابع الرقيقة لن تنفعنا في أعمال البناء في إيران.

"ألا ترى كيف يرتدون ثيابهم؟ الأطفال، الرجال، وخاصة النساء، تلك الثياب التي تغطّي كل شيء إلا قماشة الوجه..."

ولكن المسيو خوان لم يُعطني فرصة لأكمِل:

"حسناً، أنتم أيضاً لكم ثياب".

"نعم، ولكن أكثرنا يضعُ الحجاب، فضلاً عن الشادور، وهو يختلفُ عما يرتدونه".

"من ناحيتي لا أرى فرقاً بينهما".

كم وددتُ أن أقول لمسيو خوان: "أنت لا ترى الفرق لأنك أعمى، وعيناك مليئتان بمياه بيضاء وسوداء وحمراء وخضراء. لو لم تكُن مبتلى بكلّ هذه الأمراض كان من المُمكن أن ترى ما أراه"، ولكن هذه الكلمات لا تقال بل تبقى حبيسة في أفئدتنا.

Twitter: @ketab_n

-١٨-

توني الأمريكي فقدَ قدميه في الحرب. لستُ أدري هل فقدهما في حرب فيتنام، أم في حربٍ أخرى؟

كانت علاقتي به بين بين، لا أنا كارهة له ولا أحمل ودّاً كبيراً له، غير أني أبقى مُتجمّدة تجمُّد كلّ شيء غير مُعبر عنه، وهو يعتبرُني صديقة له. وجاري الأمريكي هذا هو صاحبُ "سويت" يفتحُ بابه مُباشرة على باب غرفتي، وكثيرا ما كنّا نلتقي. كما أنه يعلن عن نفسه في الممرّات الضيقة والمظلمة بجرجرة ما تبقى منه على الأرضية، حيث كان رجلاً كبير الجثة، من يعرف؟ فلم يبقَ له الآن من جثته إلا ثلثها، وهو بحجمه هذا لا يستطيع الوصول إلى المفاتيح في المكان المُخصّص لها، فيبقى أحياناً مُنتظراً في زاوية، حتى يطلّ عليه أحدٌ ما ليضغط له زر المصعد مثلاً. في مثل هذه المواقع، دائماً ما أكونُ مُتأخرة. وبجزئي العلوي الذي يتقدمني، أستطيعُ خلق حادثة تصيبني وتصيبه.

توني رجل حاد بصدرٍ عريض وعضلات كبيرة، شعره زيتوني اللون وجميل جداً، ومن يشعر بوجوده؟ أراهُ وأرى العضلات المنتفخة، وهو بالكاد يصل إلى كتفي، ولكي يُبادلني الحديث، أو يبادل أمثالي القصار الحديث، عليه أن يرفع رأسه، وهذا المشهدُ يُصيبني بالقشعريرة .

أنا أخافُ توني، لا أخافُ منه، بل من تميزه عن بقية الناس. وكلما حاولت إقناع نفسي بتقبله كما هو، لم أفلح. حتى أن عملية الإقناع الذاتي كانت تزيد الطين بلّة، لأنها تُجبرني على النظر إلى مكان الساقين اللتين خلا هو منهما. ولو فكر المرءُ بهذين الساقين، فلن يجدَ منها فائدة، إلا بأخذها إلى البالوعة ورميها.

Twitter: @ketab_n

-١٩-

مَوتى المسلمين لهُم مقبرة واحدة فقط ومكانٌ لغسل الأموات، مُتحاذيان ويقعان في منطقة راقية وهادئة. أما البناء المُخصّص لغسل الأموات وتكفينهم، فهو في غاية الروعة، ولو قالوا مثلاً هُنا جناح الحريم للأميرة السعودية الفلانية، لكان هذا أقرب إلى الواقع.

عندما مدّ الرجل يده لي، ووضعتُ يدي المتجمّدة في يده، شعرتُ أن هذا أول تواصل لي مع الموتى؛ وإن كان بطريق غير مباشر.

اسمه عبد الحميد، من الأردن، جاء إلى فرنسا قبل اثنتي عشرة سنة.

"أتيتَ كلّ هذا الطريق من الأردن إلى فرنسا لغسلِ الموتى؟ أقصد، ألم تتمكن من فعل ذلك في وطنك؟ أي، ألم يحتاجوا لتخصصك هُناك؟"

سعيتُ أن أكون مؤدبة في حديثي معه، ولكن هُناك عبارات استهزاء لم أستطع إخفاءها، ومع ذلك لم أصرّ في حديثي على أخذ الإجابة.

"لم أكن أقصد بمجيئي هُنا غسلَ الموتى، بل لأكمل دراستي. أردتُ الحصول على الدكتوراه، ولكن في العام الثاني.."

كنّا زملاء عمل، وإهانته تعني إهانتي، والأمر لا يتعدّى البصق فوق الرأس. مع ذلك، عندما عرفتُ أن أمور عبد الحميد وصلَت به من الطب إلى غسل الموتى، بلا شعورٍ مني ضحكت. إذ مرّ عليّ عشرات الأشخاص قاصدين هذا البلد من أجل الطب، ولكنهم تحولوا إلى بقالين أو سواق أو طباخين، أو حتى بائعي صُحف. ولكني إلى الآن لم أصادف طبيباً تحوّل إلى غاسِل موتى.

Twitter: @ketab_n

تحدّث عبد الحميد، بكلّ حَميمية، كيف توفي والده وهو في عامه الثاني في الجامعة، وعليه أن يكمل دراسته، ويؤمّن مصاريفه ومخارج عائلته الذين أتوا معه إلى فرنسا.

تظاهرتُ بأني أستمع إلى حديثه، بينما كنتُ في مكان آخر، مكان بعيد جداً عنه. سعيت لأكون أقلّ حديثاً، خفتُ من تلك النوبات التي أفتح فمي فتقفز الكلمات دون وعي. ضغطتُ على أسناني حتى أمنع تقيئي، ومن جانبٍ آخر حاولتُ الابتعاد بجمل مُبعثرة عن موضوع غسل الأموات، ولكن الرجلَ أصرّ، قبل أيّ حديث، أن يُريني مكان عملي، وأكّد لي:

"رؤية مكان العمل مهمّ جداً. من المُمكن أنك تحبين العمل، ولكنك لا تحبين مكانه أو العكس، خاصّة في مثل هذه المواقف، عليكِ أن تري نظافة المكان وسلامته".

"ولكني واثقة بك، قلتَ أن المكان صحّي ونظيف، وهذا كافٍ بالنسبة لي. لا حاجة لرؤيته".

"أشكرك على هذه الثقة. مع ذلك، أصرُّ قبل أن نكمل حديثنا على رؤية المكان. أعرفُ أنه سيكون مؤثرا في قبولك به".

وكنت على عكس ما يقول، قد تجعلني هذه الزيارة أو الجولة أتراجع، لهذا لم أخضع له. قام الرجل من مكانه غير مهتم بي، وقصد باب غسل الأموات، ولم يبقَ أمامي حلّ آخر سوى اتّباعه.

Twitter: @ketab_n

-٢٠-

كان مسيو خوان يهزُّ رأسه نافياً، ويردّد:

"لا ليس كافياً، دلائلك ليست كافية".

ثم قام من طاولة الطعام. لم أستطع ترك القضية بلا حسم، و بحجة مساعدته بجمع الأواني، قمتُ من مكاني تابعة له. وهو يتنقل من مكانٍ إلى مكان، تابعت حديثي:

"ألا تتابعُ أخبار أفغانستان؟ ألا تعرفُ بأحداث الحروب الداخلية والمذابح؟"

"أتابعُ أيضاً أخبار إيران".

"عمل جيد تقوم به، لذلك أنا أحبك إلى هذه الدرجة. ولكن قصدتُ شيئاً آخر، قصدت أن.."

"أرجوك أن تقولي ما لديك مباشرة".

"حسن سأقول. زبدة ما أودّ قوله، هو أن الأفغان شعب جاهل ومسكين، شعب همجي وبربري، إذ ليس لديهم ما يفعلونه غير قتل البشر".

كنتُ هائجة إلى أقصى حدّ وأصرخ، من الممكن أن يكون نعيم، أخذ علي بعض ما قصدته فيهم؛ ومن الممكن لا، على أيّ حال ولأنه لم يخرج من فمه غير لا ونعم، انطلقتُ في حديثي مُرتاحة البال:

"منذ وضع الأفغان أرجلهم في إيران، ارتفعَت إحصائيات الجنايات

Twitter: @ketab_n

والقتل أضعافاً مُضاعفة. إنهم لا يملكون إلا القتل والنهب، لا يمرّ يوم دون أنباء عن جرائمهم في الأزقة والشوارع".

حدّق فيّ المسيو خوان مذهولاً، بالتأكيد كان لحديثي وقع سيء، وجهته بما ينتزع أحشائي، حتى أنا نفسي تفاجأت:

"وكأنّ الله خلقهم للقتل، لدرجة أنّهم لا يرحمون أنفسهم، أي على الأكثر لا يرحمون أنفسهم. من أجل ملاليم، يقطعون مائة رقبة من أبناء وطنهم..".

فجأة، التفت مسيو خوان لنعيم، غير آبهٍ بحديثي الذي أخذ بالتصاعد، ووجّه الحديث له:

"نعيم، ما رأيك أنت؟ ما هو رأيك بصدد هذا الموضوع؟"

ما هو رأي نعيم؟ ومن أين يأتي نعيم برأيه؟ مادام لا يعرفُ اللغة الفرنسية، كيف يطلبُ منه إبراز رأيه؟ بالتأكيد بلغة الإشارة. آه، كم أود أن أراه وهو يُتأتئ بـ: "أنا، أنا.."، أراهُ ساقطاً في وحلِ الكلمات!

كان نعيم مَصدوماً، وفي حالة بحثٍ عن زرّ تشغيله، فقال جُملة واحدة، جملة لا تحمل معنى قوياً. جملة عادية، حتى أنّها لا تستحق الذكر.

ثم جاء نَحوي ضاحكاً بصوت عالٍ، وصافحني، وصافح مسيو خوان، ومسح على رأس سالي القابعة عند الباب، وخرجَ بخطوات ثابتة. بعد لحظات، وبينما أنا أتابع خطوات نعيم على حصى ساحة المنزل، التفتُّ إلى مسيو خوان مُتحيّرة ومتفاجئة، وقلت له :

"لماذا لم تقل لي أن نعيم يجيد الفرنسية؟"

رفع صاحب نزلنا كتفيه غير مُبال، وقال وكأنّه لم يحدث شيء:

"لأنك لم تسألي".

Twitter: @ketab_n

-٢١-

كانت واجهة مبنى غسل الأموات ملبسة بقرميد يتكوّن من قطع صغيرة مُلونة، وفي الداخل غُطي بالكامل بقرميد أبيض. أما مدخل البناء، فهو عبارة عن ثمانية أضلع، وفي كل ضلع وضع مقعد. وفي الوسط حوض ماء دائري كبير فُرِش بقرميد أزرق ذو قطع صغيرة، وفي وسط الحوض نافورة تقذفُ الماء.

أي صوتٍ، مهما كان ضعيفاً، يدورُ في أرجاء المكان، ويتردّدُ صداه ليأخذ شكلاً آخر. وبعيداً عنا قليلاً، هُناك خرير ماء لا يتوقّف، وهذا الصوت يجعل شعر الجسد ينتصب.

لقد ذكرني ببيت جدتي، وعصير الرمان، عندما كنت أدخل رأسي إلى مخزن عصير الرمان وأنا خائفة ومرعوبة، فكنتُ أسمع صوتاً شبيهاً بهذا الصوت. قد أكون الطفلة الوحيدة في العائلة التي تخافُ مخزن عصير الرمان إلى هذا الحد، مع ذلك تذهب إليه.

تُعنفني أمي، وتقول لي: "ستقعين يوماً وتغرقين فيه"، وأنا أصدقها؛ في يوم سيحدث ذلك. مع ذلك، كلما غابت الأعين، خاصة في الظهيرة، عندما يشربُ الكبار اللبن الممزوج بالخيار، ويغطّون في النوم مثل أسماك السردين في العلب مُصطفّة، أذهب مِثل عاشقة، أو قاصدةِ دعاء، إلى مخزن عصير الرمان. أدخل حتى وسطي، وأستمعُ إلى صوت ضعيف.

هل للصمت صوت؟ وكلما أمعنتُ النظر، لم أتمكن من رؤية السائل. مع ذلك، كنتُ أشعرُ بحضوره المرعِب.

Twitter: @ketab_n

عندما وقع نظري على الحوض وسط البناء ذي الثمانية أضلع، فكّرتُ للحظة أن الموتى يغتسلون أيضاً. وفي هذه النقطة أصابتني قشعريرة. إنّها فكرة حمقاء. الحوض عَميق جداً، فضلاً عن وجود مقاعد خاصة للجلوس، ومكان خاص لتقديم الشاي زُيّن حسب الذوق العربي، ويدلّ المكان على أنه خصص لضيافة أهل الأموات، وليس الموتى أنفسهم.

تتحرّك شفتا عبد الحميد بسرعة، وأنا لا أسمعُ من كلماته إلا الهارب والفار منها. سدت كلا أُذنيَّ، وطنّ في رأسي صوت مُمتد مُغلِقاً الدرب أمام كلّ الأصوات.

بابان يفتحان على البناء ذو الأضلع الثمانية، كُتِب فوق أحدهما "نساء" والآخر "رجال"، وكنت أجيدُ العربية لدرجة أني عرفت أنه في هذا المكان يُعزَل الرجال عن النساء. إذن، عليّ أن أقطع بقية الطريق لوحدي، فألقيتُ نظرة رجاءٍ لعبد الحميد.

"اليوم ليس لدينا مراجعات، ومدام ليلى ليست هُنا، فأستطيعُ الدخول لأوضّح لك مراحل العمل".

جاءنا صوتٌ من قسم الرجال، وإن لم يكُن لديهم مراجعات اليوم، ولكنّهم مشغولون إلى أقصى حدّ في الجهة الأخرى.

Twitter: @ketab_n

-٢٢-

بوجا مُراسلة؛ هي تقولُ ذلك. ولكني لم أر أي دليل على المراسلة فيها إلا فضولها. وأسئلتها تضربُ في عمق الخصوصيات. وكلما كانت الإجابة مُفصّلة ومطولة، اندفعَت أكثر ووجدتَ إغراءً للنفاذ إلى العُمق. تحدّق بعينيها نصف المغمضتين والناعستين إلى مُحدّثها، مُنتظرةً إياهُ أن يخبرها بالتفاصيل كلّها وبلا توقف؛ خاصة الجزئيات. هي عاشقة للجزئيات، الأشياء الصغيرة والتي تختبئ عن أعين الآخرين، تأخذ شكلاً آخر في عينيها، وهي تشبهُ الدراكولا حين يشربُ دم ضحيته.

كنت أفرُّ من بوجا، إذ كانت ثرثارة، وأنفاسُها في الفجر- كأنها عواء الكلب معلناً مَغيب الشمس- مُشبعة برائحة البهارات المتنوعة والثوم. وكنت مُجبَرَة على التنفس بتقطع.

بوجا تحبُّ الدنو مع مَن تحدثه حتى الالتصاق به، ولذلك دائماً ما كنت أقف أمامها ولديّ مُتّسع للتراجع.

ولأني أخافُ مواجهة هذه الفتاة الهندية، قبل خروجي من غرفتي، أضعُ أذني على الباب حتى أطمئنّ هل يزحفُ الساري في الخارج أم لا؟ ولا أقول صوت الأقدام، لأنّ جارتي لا تلبسُ حذاء. بل حتى لبس النعل الخفيف يزعجُها. فتذهبُ حافية القدمين من الغرفة إلى الحمام، ومن الحمام إلى المرافق، ومن هُناك مُباشرة إلى سريرها. بل إنها تتجولُ في البناء ذي الطوابق السبعة، مُضافاً إليه طابقان أرضيان وهما مخزن المضخات ومكانُها، كما لو كان مُلكاً لها.

Twitter: @ketab_n

-٢٣-

رُبمّا لم تأتِ هذه الفكرة دفعة واحدة في ذهن مسيو خوان، ولكنّهُ طرحها دفعة واحدة، بعد بضعة جمل اختيرت بدقة:

"تعرفين أنّ نعيم عاشَ ثلاثة أشهر كاملة تحت الأرض في خطوط المترو؟"

لا لم أعلم، ومن أين لي أن أعلم؟ لم يكُن نعيم صديقاً لي، ولا أعرف شيئاً عن حياته، ولا أودُّ أن أعرف عن وضع نعيم، أو أيّ شخص آخر، لأنّه كلما قلّتْ معرفتي بهم، قلّتْ التزاماتي ناحيتهم، وسأغادرُ الدنيا مطمئنة البال. ولكن لماذا يسمحُ المسيو خوان لنفسه أن يَضعني في حياة نعيم؟ هل طلبتُ منه؟ رغم ذلك، قدّم لي تقريراً مُفصّلاً عن حياة نعيم، مُتجاهِلاً عدم رغبتي في إقحامي داخلَ حياة شخص لا أعرفه.

"تعرفين أنه مريض، قبل فترة قليلة أجريَت له عملية بواسير. ابتُلي بهذا المرض في السجن، فقضاءُ ثلاثة أعوام في سجنِ المُجاهدين ليس مُزاحاً".

بالتأكيد ليس مزاحاً، ولكن من أين نعلم أن هذه هي الحقيقة؟ وإن كان الأُوروبيون لا يشكون أبداً في مثل هذه القصص، ويجدون الاستماع لها نوعاً من الترفيه، بينما نحنُ أبناء العوالم التي لا أعرفُ رُتبتها، تتقصّدُ بعضنا ورويداً رويداً، نتعلّمُ ألا نصدّق ما يُقال لنا بسرعة.

"عندما خرج من المشفى، ذهب إلى أبعد مَحطة مترو يعرفُها، وبقي هناك".

Twitter: @ketab_n

عندها قام مسيو خوان من مكانه كما يستوجبه المشهد الذي نحن فيه، وكأنه للمرة الأولى يرى غرفتي البائدة. نظر لها بتفحص، ثم ذهب إلى النافذة بروية، استندَ على إطار النافذة بالجانب الأيمن من جسده، وحدّق بالجوانب الأخرى بحيرة وذهول.

تشيرُ وجنات صاحب النزل أن لديه قصة طويلة ومؤلمة يريد أن يقصها علي، وكأن حياتي تنقصها مُنغّصات، كي أستمع إلى قصص الأخرين، وأتعاطفَ معهم.

Twitter: @ketab_n

-٢٤-

لكي أدخل قسم النساء، خلعتُ حذائي أولاً ثم لبستُ نعالاً أبيض. كانت هناك أعداد منها وضِعَت في مكان مُخصّص لها. مشيتُ خلف عبد الحميد مُقلّدة كل حركة تصدرُ منه، مع كلّ خطوة تتسارع ضربات قلبي، وأقولُ لنفسي: "ها نحنُ وصلنا إلى المكان الذي اصطفّ فيه الموتى مُنتظرين خلف بعضهم".

ندخلُ إلى صالة ونخرجُ من صالة أخرى.

أول صالةٍ كانت لتقديم الغداء ولاستراحة الموظّفات. لم يخطُر ببالي في يوم أن أتناول وجبتي هُنا أو حتى أغمض عيني. الصالة الثانية لمُرافقي المتوفى، والثالثة للمتوفى، وهو مكانٌ على حدّ تعبير عبد الحميد بإمكان المتوفى البقاء فيه لإسبوع أو شهر أو أكثر دون أن يصيبهُ مكروه، أو أيّ تغيير. أخيراً، وَصلنا إلى الصالة المركزية، وهي المكان المُخصّص لغسل الأموات.

تحيطُ الغرفة من كلّ مكان مَقاعد مُتقابلة ومنفردة، بينها طاولات عالية. صوت خرير الماء يأتي من هنا، لم أوفق في تخيل حوضٍ مَملوء بالماء، في حال أنه حمام سباحة عرضه متران، وطوله لا يقلُّ عن خمسة أمتار. لم أر في حياتي حوضاً بهذا القُبح أبداً. قد تكون نوعية استعماله هي التي سبّبت هذا القبح.

فُرِش الحوض بقرميد أبيض، ولم تكن هُناك نافورة. بل وضع مكانها ماء جارٍ من فاصلة متر. مع ذلك، فإن حمام السباحة مَملؤ بالماء إلى آخره. ظننت أنهم نسوا إغلاق الماء، ولكن عبد الحميد، وأثناء توضيحه،

Twitter: @ketab_n

قال لي بأن الماء يستمر في الجريان طوال وقت العمل، بل طوال اليوم، إذ يأخذ الماء طريقه إلى المجاري.

على جوانب حمام السباحة، هناك ثلاثة مقاعد إسمنتية؛ مقاعد عريضة أبعادها متر ونصف تقريباً في نصف متر، وزّعَت على فواصل مُتساوية، إلى جانب كل مقعد هناك خزانات كبيرة فيها أنواع مُتعدّدة ممّا يحتاج العمل له. بالطبع إنّ أكثر الأماكن رعباً هُنا، هو المكان الخاص بغسل الأموات، بعد مكان حفظ الجثث. وإن كنتُ لم أر الأموات بعيني، ولكني شعرتُ بحضور أرواحهم.

Twitter: @ketab_n

-٢٥-

تقعُ غرفتي مقابل غابات بولونيا. ومن المكانِ الذي يقفُ فيه المسيو صاحب النزل، بإمكان الناظر أن يشاهد البحيرات الصغيرة حولها. بدأ المسيو خوان بالحديث بصوت يسمَعُ بصعوبة دون أن يبعد عينيه عن المنظر الخلاب.

هذه هي عادة صاحب نزلنا عندما يكون مُنفعلاً، تنخفض نبرته وتقترب لهجته من لغته الأم، إلى الحدّ الذي لو فهمتُ منه شيئاً، لاستطعت تهنئة نفسي على فهمي اللغة الإسبانية.

"في ذلك المترو تعرّفتُ عليه. كنت آتية من منزل أحد أصدقائي. كنا نتبادلُ أحاديث الحرب. وما أن انتبهنا، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. خرجتُ مسرعة، ووصلتُ إلى أقرب محطّة مترو، لا أحد في الداخل، لا أحد خلف شبّاك التذاكر، لا أعرفُ متى كانت رحلة آخر مترو، وهل هُناك مترو آخر أم لا"

"ظننتُ في البداية أن نعيم مشغول بقراءة كتاب. كتاب قديم غاب لونه. ثم عرفتُ أن الكتاب لم يكن قديماً، بل هو تأثير ملامسة الأصابع لجلده. اقتربت منه وسألته، هل يعرفُ متى يصل آخر مترو. كان مظهره يدل على أنّه أجنبي، وأنا كنتُ كذلك، أقصد أنه غير أوروبي. ظننتهُ في البداية عربياً، ولكنه حين تكلّم، عرفتُ أني مخطئة، العرب يتحدّثون عادةً من أدمغتهم أكثر ممّا تحتاجه اللغة الفرنسية، وتخرجُ كلماتهم من عمق الحلق، حتى أنيّ لم أظن أنه إيراني".

تركْت مسيو خوان يسترسل، ولم أعد إلى ذكر الفرق بين الإيراني والأفغاني،

Twitter: @ketab_n

لأني أعرف أنه لا فائدة من الأمر، وهذا العجوز لا يرضخُ أبداً، وخجل تلك الليلة ترك أثره في تصميمي.

فجأة غيّر صاحب نزلنا موضوعه، وسألني:

"هل تعرفين ماذا كان يقرأ نعيم؟"

حرّكتُ رأسي نافية، ومن أين لي أن أعلم؟ وهل أشم يدي؟ أنا لا أعرف ولا أريد أن أعرف، ولكن مسيو خوان لم ينتظر ردي. فهو كالعادة، يسألُ بلا انتظار إجابة. يغضبُ أحياناً لأنك فتحت فمك لتجيب، وينظر إليك شزراً، وما يهمني الآن وأريدُ معرفته هو لماذا يصرُّ مسيو خوان على التحدث معي عن الأمر.

لم يقل شيئاً. تأثر بذكرى تلك الليلة، ثم مَشى رويداً رويداً إلى الباب خافضاً رأسه، مُحدّقاً أمامه. رفع قدميه بحذر، وكأن هناك آلاف الأفاعي والعقارب تتربص به. فالمسافة لم تكن إلا بضعة أمتار، وليس أمامه إلا الوصول إلى الباب لفتحه، ثم يغادر. لو كنت عرفتُ أن الأمر لا يتعدّى التعرف على إبن لغتي، لما احتاجَ إلى كلّ هذا العبوس، وندمت لماذا -مثلما هي العادة قبل وقوع الحدث- أذهب لاستقباله، ولكن المسيو خوان، ومن أمام الباب، التفت ناحيتي فجأة، وقال بلا مُقدّمة:

"هل تقبلين أن تُعطي إحدى غرفك لنعيم؟"

Twitter: @ketab_n

-٢٦-

توني يجيدُ الفرنسية جيداً، لكنه يصرُّ على التحدّث باللغة الإنجليزية معي. لم أكن أعرف الإنجليزية، ولا يريدُ توني فهم ذلك. هو يظن أن الحديث بصوتٍ عالٍ مُقطّعاً الكلمات سوف يساعدُني على الفهم. في حال أني لا أعرف معنى الجملة، لا يشكّلُ تقطيع الكلمات أو الأحرف أيّ فارق نسبة لي. ولكن توني المنحوس أمريكي، والأمريكان حمقى. لا يَقرؤون من الصحيفة إلا صَفحات الإعلانات، وما وقع بين يدي من إحصائيات تشيرُ إلى أنهم من ناحية القواعد واللغة والتأريخ والجغرافيا أدنى مُستوى من بقية الشعوب. إنّهم لا يعرفون من اللغات إلا لُغتهم الأم. ما أن يضعوا أرجلهم على أرض، سواء كانت لهم أم لا، حتى يتصرّفوا وكأنّ الأرض ملك لهم.

لذلك يرفضُ توني الحديث باللغة الفرنسية، يهز رأسه ويقولُ بصلف:

"لا أحتاجها"،

ثم يضحك بصوت عالٍ. عندما يصادفني في الممر، يحييني برقة وابتسامة. يسألُ عن حالي ويصرُّ على أنه يعرف ما هو رأيي بصدد القضية السياسية الفلانية، أو الخلاف الحزبي الفلاني. أنا إيرانية، وتوني يعرفُ أن الإيرانيين أهل سياسة، ولكني مُنذ زمنٍ لم أقترب من السياسة. في الحقيقة، منذ وقت طويلٍ لم أكن شيئاً مُحدّداً.

Twitter: @ketab_n

-٢٧-

قد يكون أسوء ما في المقبرة، بصرفِ النظر عن الأموات، هي الأدوات المُستخدمة للتكفين، فهي دائماً بيضاء، كل شيء فيها أبيض. ومنذ لحظة دخولي إلى الصالات، إلى أن خرجت، لم أر لوناً غيره؛ الثياب الباذخة منها والرديئة- وإن كنتُ لم أر الرديئة بعدُ منها- حتى الأبواب والجدران والأسقف والأسرّة والمقاعد والأحواض والأسطل والأقمشة والكؤوس الكبيرة التي سمّاها القدماء المشارب والتي استخدمت في الحمامات؛ خلاصة الامر كلّ شيئ لبس البياض. من هنا، ومنذ هذه الساعة، كرهتُ هذا اللون، كرهته أكثر من اللون الأسود، لأولئك الذين لم يَروا الموتى، ومكان غسلهم اللون. فاللون الأسود هو لون الموت، ولكن الأبيض بالنسبة لي هو علامة الموت، والموتة والميت.

والأسوء من كل هذا وذاك، هي الروائح النتنة التي تدورُ في أرجاء المكان. وبالاقتراب من مكان استقرار الأموات، تشتدُّ قوتها. يتعلّق قسم من هذه الرائحة بالأموات، والقسم الآخر يتعلّق بالأدوية التي توضع للأجساد الفاقدة للحياة كي تصمد أمام تعفنها، وقسم آخر من الرائحة يتعلّق بالمواد التي يغسَل بها الأموات. فضلاً عن هذا المكان المملوءِ برائحة دخان الكافور والعنبر، والذي يقحم كل شيء في هالة إبهامية.

تركيبة هذه الروائح لا تشبه أيّ رائحة، ولا يعتاد الإنسان عليها، خاصة أنها لا تنسى، ويكفي المرء أن يصطدم بها مرّة واحدة فلا تغادره أبداً، ولا تشم هذه الرائحة بالأنف بل بالفم؛ رائحة دسمة تلتصق بالحلق، ومع كلّ لقمةٍ تبتلعُ جزءاً منها. قد يكون الباعث هو نظافة الأبواب والنوافذ

Twitter: @ketab_n

الزجاجية في هذه الصالة الكبيرة الخالية من صورة أو تمثال، ومن الممكن أيضاً أن السبب هو اضطرابي على أي حال، وبينما كنت أنظر إلى المقاعد والحوض، صدمت رأسي بزجاج، وصوت آخر دار في المكان.

أصيب رأسي، وسقطت قطرات دم، ولكن لم يكن الألم قوياً ليجعلني أدخل في نوبة بكاء. عبد الحميد أوكل رؤية مكان غسل الأموات إلى وقت آخر، وأنا عدتُ أدراجي بسرعة.

Twitter: @ketab_n

أعرف ما هي أفضل طريقة في هذه المواقف. ولكني لا حباً بالله، ولا بنفسي ولا لرضى المسيو صاحب نزلنا، ولا حتى من أجل ضميري المُعذَّب، خاصة وأني شعرت بالسذاجة، وأني أخدع، وعرفتُ لم هذه المكرمات من مسيو خوان، المكتبة، ثم طلاء الغرف. من المُحتمل أنه قدّم كلّ هذا الكرم من أجل إشعاري بأني مدينة له، وحتى لا أجيب سؤاله بـ"لا"، العجوز المسكين! كم أتعبَ نفسه، على أيّ حال لم أكن من النوع الذي يرفض مثل هذه الطلبات، حتى ولو أُجبرتُ على إجراء عملية بواسير، أو أن أقطنَ في أبعد محطة مترو أعرفها.

منذ الصباح، وضعتُ يداً على يد وجلست في مكاني. بينما جلس نعيم مُنتظراً في بيت مسيو خوان لتحلّ الساعة الثانية وينزاحَ عن رأسي. أنا من حدّد الوقت، قلتُ لمسيو خوان أني أحتاجُ إلى وقت لأرتّب الغرف، فأجابني:

"هل تكفيك ساعتان، ثلاث ساعات؟"

تظاهرتُ بأني أفكر باحتياجي إلى مثل هذا الوقت، في حال أن الامر لم يكن كذلك، كنت أفكرُ في أيامٍ كمهلة، أردتُ استغلال ما تبقى لدي من عزلة.

لم أكُن في حالة جيدة، منذ الصباح شعرتُ بإنهاك. نهضتُ من السرير بصُعوبة، ولم يكن الإفطار ولا الدوش الصباحي بأفضل من النهوض. ولكن الأعظم منها كلّه هو تغيير مواضع الأثاث، أي أن أضع خزانة لنعيم، وعلي

Twitter: @ketab_n

أن أقرّر أي درج أخلي له، وأيّ سريرٍ أعطيه؟ والأهم، أيّ غرفة ستكون له؟ كنتُ مثل حمار سقط في الطين، ما يُحطيني لا يتركني أتّخذ قراراً.

مرّ اليوم بسرعة البرق، وطرقات الباب أعادتني إلى نفسي. نعيم جاء حاملاً على ظهره خرجين، وممسكاً بأغراضه الصغيرة. وقفتُ أمام الباب، لم أستطع الابتعاد، حدّقت فيما حملهُ نعيم؛ قبضة من العفش، ليتكَ تركتها في الشّارع لتكون من نصيب المُتشرّدين، وإن كنتُ أظنّ أنهم لن يرغبوا فيها، الشيء الوحيد ذو قيمة بين أغراضه، هو صندوق الكتب، وهو الشيء الوحيد الذي ساعدتهُ في حمله، وطوال فترة إدخاله لأغراضه داخل البيت، جمعتُ يدي على صدري ووقفتُ في زاوية أنظرُ إليه بلا اكتراث.

أنهى ضيفي المُتطفّل عمله وهو غاضب، قد لا يكون راغباً في المجيء إلى بيتي، والمسيو خوان وحده من يتحمّلُ المسؤلية، لماذا لم يدعنا نعيش كلّ في زاويته؟ أنا في بيتي، ونعيم في أيّ مَحطة مترو. من يعرف، قد يكون في محطة المترو أفضل بكثير، على الأقل في الليل. إنه قصر ليس فيه إلا غرفتان، وإن كان يحمل في النهار مشهداً جميلاً، وفي الليل هو عالم من الأسرار.

Twitter: @ketab_n

-٢٩-

ثلاثة أعوام مرّت وأنا من دون عمل. كان لي عملٌ فَصلي في عيد الفصح، أذهبُ إلى الجنوب لأعمل حاضنة أطفال قرب البحر، وفي العطل الصيفية أذهبُ إلى الشمال قرب الجبال لأعمل حاضنة أطفال آخرين. في الصيف، أذهبُ إلى بوردو لقطف العنب، وأتعرّف هناك على شبان من كلّ جنس وبلد، منذ الصباح وحتى الليل أعملُ في بساتين العنب، وفي الليل أجلس أمام النار أهذي إلى الصبح.

الجلوس والتحدث هو من عادات الناس الذين هم على شاكلتي، وهو أفضل ما يقومون به، ولكن من حسن الحظ أن الأكثرية تُشكّل القسم الثاني في مَجموعتنا، وهُم في كامل قواهم الجسمية والعقلية للقيام بعمل آخر، فهم يذهبون راكضين للاختباء في الخيام. على أيّ حال، كلا الفريقين لا ينامون أكثر من ساعة، وفي اليوم الثاني يذهبون إلى البساتين تعبين جراء نشاطات الليل.

كنتُ مساعدة غاسل أموات، أكثر من أني غاسلة أموات، وعمل مساعدة غاسل أموات، وإن كان متعباً، ولكنه يحمل حسنة، وهو أنّه لم يكن فصلياً، وساعات عمله قليلة. والأهم من هذا كلّه، ليس هناك مراقبة ومتابعة أثناء العمل، أي لا يمكِنُ في يومٍ من الأيام أن ألتقي بشخص أصغر مني عُمراً أو أقلّ مني خبرة جاء ليسلبني عملي، ولو كان بطلبٍ من رئيس المؤسسة نفسها. ومن ناحية أخرى، هناك احتياجُ فرنسا لتخصصي، فمن خلاله أستطيع الحصول على الإقامة الدائمة في هذا البلد، ولن تكونَ لديّ مُشكلة تجديدها كل عام، وبراتبٍ لم أحلُم به، كما أستطيعُ

Twitter: @ketab_n

العمل ثلاثة أشهر مُتعاقِبة، ولي من العام ما تبقّى لأقضيَهُ كيفما شِئت. أستطيعُ توديع المعكرونة والعدس مع كيلو الخبز الأبيض، وأستطيعُ السفر إلى إسبانيا واليونان، وحتى البندقية. وأستطيع شراء هدايا لعائلتي، هدايا لم يستلموها من أحد أبداً؛ بلوزات ناعمة وألوانها تحدّث البشر، معاطف دافئة وخفيفة، وفي وسعي أن أشتري للأطفال دمى تتكلّم، أو قطارات تمشي كليو متر، وحلويات وشوكلاتة، مُجرّد النظر إليها يسيلُ اللعاب إلى درجةِ أن تغرق بلدة بكاملها.

وقد أرأفُ بنفسي وأشتري ثياباً لأظهر بمظهر جديد، وعند الحضور في الصفّ لا يجيبني أستاذي بـ: "لزُكامك المتُعاقب هذا.. هُناك دواء جيد.. ولكنه، للأسف، غالي الثمن".

Twitter: @ketab_n

-٣٠-

نفض نعيم غبار ثيابه، وقال:

"أتعبتك؟"

قلت له: "لا".

ولكن لائي أخذت مكان مائة "نعم".

وقفنا مقابل بعض واجمين، قد يكون ليس لنعيم ما يقوله، ولكني أنا أيضاً لا أستطيعُ قول شيء. وإلى متى نبقى في صمت؟ من منّا سيُبادر في الحديث؟ بدأ نعيم الحديث وهو ينظرُ إلى شيء فوق رأسي، ويُركّز على نقطة مجهولة. قال باللهجة الأفغانية:

"أنتُم عطوفون جداً في الترحيب بنا بهذه الصورة، لكنّنا نعرفُ جيداً أن الأمر ليس كذلك، ولكننا نأملُ، ونعِدُ، أن تكون إقامتنا قصيرة، ونذهب إلى حال سبيلنا. مسيو خوان قال الكثير عنكم، عن أحاسيسكم، عن عطفكم، وعن حبّكم لشعبكم ولثقافتكم..".

المديح كان صادقاً، لأن خوان قليلاً ما يمدحُ أحداً، ولكن ما الذي سأفعله بهذا المديح، أو بماذا يُفيدني؟ رغم ذلك، أصبحتُ أكثر ليونة معه، أحسستُ بأنه يتودّدُ لي. على الأقل، لم تغِب طيبتي عن أعيُن البعض، وتذهب هَباء.

الإحساسُ بالرضى عن طيبتك وتقديم العون جميل جداً، بيد أن عمرهُ أقصر من إغماضة عين. هذه المرة، انتهى الإحساس بالرضى عن النفس

Twitter: @ketab_n

مع انتهاء حديث نعيم، وسأواجهُ من الآن فصاعداً العيش مع إنسانٍ لا أعرفه، ولا أريدُ أن أعرف عنهُ شيئاً. فضلاً عن ذلك، علي أن أحزم أمري في الغرفتين، وكيف أقسمهما. تلك الغرفة فيها حمام، والغرفة التي أقفُ أمامها الآن قرب المطبخ، تلك الغرفة أكثر هدوء وأكثر دفئاً، وفي تلك خزانات ملابس، وفي هذه مكتبة، وأنا لي حاجة لكلا الغرفتين ولإمكانيتهما، خاصّة عندما أتجول في البيت مثل المجانين من غرفة إلى غرفة، وهيَ حالة تُلازمني أكثر الأوقات: عندما أُذاكر، عند إجابتي على الاتصالات، عند تنظيف أسناني، عندما يُحاصرني ألم الغربة، عندما.. أخطو خطوات واسعة وسريعة، أتنقّلُ من غرفة إلى غرفة أخرى.

الاختيارُ صعب، ولي أنا صعب. لا أستطيعُ التغاضي عن أيّ غرفة. خرجت من البيت، ولم أعد إلا بعد أسبوع غياب.

Twitter: @ketab_n

-٣١-

لم تتزوج بوجا، ولا تظن أنّها ستتزوج. سعيدةٌ أنا من أجلها. أتمنى أن تبقى على رأيها. هذا رغم أن عدم اهتمام الجنس الآخر بها يُزعجها، أن تكون بكراً بصورة عامة، وأنّها بكر بصورة خاصة، تعتبره امتيازاً كبيراً. دائماً ما تتحدث لي عن هذا الموضوع، تشايعه بغمزة، تشير بأصابعها الطويلة السّمراء إلى المنطقة المُحرّمة، وهي تُحرّك يدها إلى الاعلى وإلى الأسفل، تلك الحركات لا تبقي أمام من يقف أمامها إلا مُتابعة حركاتها الشبقة، وتُكرّر أنّهُ لم يلمَس أبداً، وتؤكّدُ على كلمة أبداً، تضمُّ شفتيها الممتلئتين وتهز رأسها نافية، لتدلّ على أنه لم يُقبَّل أيضاً. في مثل هذه المواقف، عليّ كلّ مرّة أن أظهِر تعجُّبي، وأقول:

"حقاً؟"

وهي تُكرّر:

"نعم".

ومرّة أخرى تُحرّك رأسها قائلة:

"كاملاً".

أعاود مَدحي قائلة لها:

"كم هو أمرٌ جذّاب!" .

وأعتقدُ أن عذرية بوجا موضوع جذاب، ولن يؤثّر فيه الزمن ليسقِطَ حلاوتَه.

Twitter: @ketab_n

-٣٢-

ضعتُ لأسبوع كامل. كنتُ في بيت هُدن، صديقتي الصومالية، وهي طالبة الطب. عندما تخرجُ من بيتها لا أعرف عنها شيئاً لمدّة أربع وعشرين ساعة. وعندما تعود، إما أن تنام أو تدرس، وبعيداً عن دراستها التي تزعجُني وتعذّبُني، ليس لدي أيّ مُشكلة مع كلّ خصوصياتها. فهي هادئة جداً، تأكل قليلاً، تتكلم قليلاً، تسبحُ قليلاً، وهي أكثر الأوقات تحبسُ نفسها في آخر غرفة من شقتها ذات الغرف الثلاث، فلا يمكِنُ لأيّ ضوضاء أن تربك انتباهها أو تخلّ بعمل تقوم به؛ من صوت التلفاز إلى الحفلات التي يُقيمها أكثر أصدقائها في منزلها، لأنّ بيتها كبير، وأحياناً لا يرى أصدقاؤها لزوماً لدعوتها أو تذكيرها بالحفل، ومع ذلك لا تعترضُ هُدن، بل وحتى حضورها بإمكانك تجاهله بكلّ سهولة، وحتى عندما تخرجُ من غرفتها لأخذ كأس ماء من المطبخ، لا نشعرُ بعبورها من أمامنا، ولو شعرنا به لتذكّرنا مُستأجراً لم يُسلّم أجارهُ منذ أشهر.

هُدن فتاةٌ في الرابعة العشرين من عمرها، طولها مائة وثمانية وأربعون سنتيمتراً، وزنُها مائة وثمانية وأربعون كيلوغراماً، وفي الوقت ذاته- أتمنى أن تعذروني- هي قبيحة جداً، إلى درجة أنه ليس أمامها غير الانضمام إلى زمرة الدارسين. ومن الأشياء التي تُشعِرُني بالسعادة إلى جانبها هي مُقارنة نفسي بها لأصلَ إلى جمالي، فكم أنا جميلة ورشيقة!

واخترتُ الذهاب إلى شقتها لأن أصدقائي الإيرانيين لا يعرفونها. لم أكن في مزاجٍ يسمحُ لي توضيح حضور نعيم المفروض علي لهم، ليشهقوا تعجباً، هازين رؤوسهم أسفاً، وسيدخلونني في نوبة ندم وكراهية أكثر مما أنا فيه.

Twitter: @ketab_n

من مميزات هُدن الأخرى هي أنها لا تسأل، إلا إذا أردتَ أنت أن تتبادل معها الحديث، وعندها لن تتعجّب، وكأن الأمر من أسهلِ ما يحدث في العالم، وعلى الأقل حدث لها هذا الأمر آلاف المرات، فردّة فعلها الباردة عن أُناس مثلي مُتحمّسين مثل سكب ماء على نار. وبعد مرور أسبوع، استطعتُ التحدث عن مُصيبتي التي حلّت بي، وردّة فعلها تلك الباردة أوصلتني إلى نتيجة: كم هي قضية عادية ولا تحتاج إلى كلّ هذا، ولماذا انزعجتُ لأتركَ له البيت؟!

ولكن، ما أن وقفتُ خلف باب بيتي، غابَت هُدن عني وغابت ردودُ فعلها الهادئة، وعدت أنا كما أنا.

Twitter: @ketab_n

-٣٣-

لو استطعتُ على الأقل أن أغير رؤيتي عن الموت لتحسّنت أموري، لأن رؤية السُّنة لهذا الموضوع عادية جداً، ولذلك فهم يتعاملون مع غسل الأموات ومساعد غاسل الأموات بهذه الرؤية نفسها. وقبل أي شيء، ينظرون إلينا بعين مُتفحّصة، خاصة أننا مُجبرون على ارتداء الثياب البيض، فينحني كبار السن من رجال العرب ونسائهم احتراماً لنا. وعندما يلاقوننا في دخولهم، يسلمون علينا ويدخلون. في مثل هذه المواقف، أشعرُ بإحساس جميل، وهو أن عملَ غاسل الأموات مثل باقي الأعمال، وإن كان لا يصل مُستواه إلى الطب، ولكنّهُ يصلُ إلى التمريض، فالمُمرّض يعتني بالمريض، وغاسل الأموات بالموتى.

تُلاحظون أنّهُ لا اختلاف بينهما.

فالسُّنة يدفنون أمواتهم قبل غروب الشمس، وبسُرعة مدهشة إلى درجة لا يتمكّنُ أحدٌ من توديع الميت، هذه تقاليدهم، ما أن يأخذوا المتوفى من مكان غسل الأموات وحتى إيصاله إلى حافة القبر ووضعهِ على الأرض، طوال هذه الفترة وكأنّ هُناك من يركض خلفهم، ومن ثم يدفنون ميتهم بعجلةٍ ويعودون. عملية التحنيط تقعُ على عاتق حافر القبر، والمسؤولين عن المقبرة، ولا يعود للقبر ذكر، ولا يزوره أحد، حتى يمرّ عام أو عامان، مُحضّرين ميتاً آخر يدفنونه بتلك السرعة، ويزورون موتاهم بالسرعة نفسها.

ما دمتُ في مكان غسل الأموات، وإلى جانب من يعمل في هذا المجال، يُخيّل إلي أن هذا العمل هو أمرٌ طبيعي. ولكن ما أن أستقل المترو، ومع وصولي إلى البيت، حتى يتغير كل شيء.

Twitter: @ketab_n

-٣٤-

تصل من الغرفة أصوات يدور حديث بينها، ولم يكن صوتُ نعيم الشبيه بصوت بكاء طفلٍ بينها، هُناك صوت آخر لم يكن صوت المسيو خوان، فقد رأيتُه قبل قليل في ساحة البيت، كان يرتّب حديقته، وقد رحّب بي وكأننا انفصلنا قبل دقائق، لم يكُن صوت شخص آخر. أحياناً تدل الأصوات على أكثر من أربعة أشخاص.

الظاهر أن العزيز نعيم ليس هُنا واستضافَ جماعتهُ في بيتي، هذه الفكرة أشعلتني.

لا أستطيع الذهاب إلى غرفتي، ولا أستطيعُ الوقوف في الممر، من المُمكن في أيّ لحظة أن يصل أحد الجيران. لذلك، قرّرت العودة إلى بيت هُدن مرّة أخرى. أوصلتُ نفسي إلى المصعد بخُطى سريعة، وضغطتُ على الزر. مرّت لحظات إلى أن وصل المصعد، كانت نظراتي قد توزّعت بين الممر والأرقام التي تتبادل الإضاءة المعلقة فوق باب المصعد؛ واحد، اثنان، ثلاثة.. بقي القليل لوصوله إلى الطابق السابع، وهُناك السلالم إذا ما خرج نعيم، أو أحد أصدقائه، فبإمكاني استخدامها. في ذلك اليوم كانت حركة المصعد أبطأ من كلّ مرّة، وكأنه أضيفَ في أسبوع، قرن على عمره، وإن لم يكن شاباً جداً وسريعاً في الأوقات الأخرى.

تسارعَت ضرباتُ قلبي، ومع كلّ نبضٍ كنت أسمع صوت هجوم الدم مثل جريان الماء في مكان مُغلق.

وصل المصعد أخيراً. ألقيتُ آخر نظرة على بيتي، وقصدتُ المصعد

Twitter: @ketab_n

مسرعة لأتوارى فيه، وما أن فتحت باب المصعد حتى خرج نعيم منه. اصطدم كلانا ببعضنا، لم أعرف ما عليّ فعله. نعيم بادر في الحديث، أظن أنه شرح كم كان قلقاً عليّ، وإتّصل بمن استطاع الاتصال به ليعرف أين كُنت.

ولكنّي لم أكن معه، ما يشغلُ بالي الآن هو الأصوات التي سمعتُها من خلف الباب.

Twitter: @ketab_n

-٣٥-

تُجاورني عائلة أخرى من السود، يُعلنون بمقل أعينهم البراقة عن حضورهم وهم يجتمعون في الممر، ويُذكّرُني بريق أسنانهم عندما يضحكون بإعلانات معجون الأسنان، وهناك أشياء عَديدة يتباهون بها، مثل عدم دخول معجنون الأسنان إلى بيتهم، لأنهم ما زالوا مِثلما كانوا في الماضي- قبل عشرين عاماً حتى قبل أن يعرفوا بأن هناك دولة باسم فرنسا- يستخدمون لتنظيف أسنانهم نوعاً من سيقان النباتات، وتُباع في باريس في سوق الأفريقيين، فهُم لا يحبّون الوجبات الفرنسية ولا يلمسونها، إلّا إذا أجبروا، وعندها يجمعون شفاههم المُكتنزة بصورة من يخافُ فرار اللقمة من فمه. ومع هذا، فهم يودون عدم لمس هذا النوع من الوجبات الأجنبية المُقززة لجدران أفواههم، بينما اللحم المُقدّد الآتي مُباشرة من قلبِ أفريقيا العابر للصحارى والوديان يَمضغونه بانشراحٍ يريك أجزاءه، وهي تتهشّمُ في أفواههم.

إنّهُم يزدرون البيض والشقر، ومن خلف ظهورهم يهزون رؤسهم قائلين:

"اللهم لا تجعل هذا من نصيبنا".

هُم يعتقدون أن يكون الإنسان أبيض هذا أكبر مصيبة تقعُ على رأسه، ويدعون أن الأبيض في بلادهم هو شتيمة. مثلما يحدث في بلادنا حينما يعدُّ السواد شتيمة. طبعا تماسكتُ هذه المرة ولم أقُل أن أحد السباب المُستخدَم عندنا يُشابه ما يستخدمونه.

المرأة ربة بيت، وزوجها طالب دكتوراه في هندسة النفط، ورغم الدراسة

Twitter: @ketab_n

وأعماله الكثيرة، استطاع إدارة روضة عائلية! فأولاده نسخة مُصغّرة طبق الأصل عن الأب، والبنات نسخة مصغرة طبق الأصل عن الأم، وهم مع بعضهم البعض في كلّ مكان وفي كلّ الأحوال. يمشون في الممرّ الضيق يداً بيد، وعندما ينزلون إلى الشارع على هذه الهيئة، يُشبهون الأطفال الذين جاؤوا لاكتشاف العالم تحت رعاية مدرّسيهم.

من مميزات هؤلاء الأفارقة هو ضجيجهم، وإذا ما قاموا بأيّ عمل فهم يؤدونه بصَخب عارم، وكأنما لا يمر يوم بلا مُشاهدين، أو على الأقل مُستمعين، فهُم يأكلون بصخب، ويذهبون إلى الحمام بصخب، ويوجّهون أطفالهم بصخب، ويؤدون كلّ شيء بصخب، وباب بيتهم دائماً مشرع، وبراحة بالٍ كاملة يقومون بكلّ أعمالهم بلا قلقٍ مما سيظن بهم الآخرون أو سيقولون.

Twitter: @ketab_n

-٣٦-

شخيرُ نعيم يشبهُ شخير قط، وأنا لا أحتملُه، أتحرّكُ في سريري مثل دودة، وكلّ دقيقة أبدّلُ مكاني؛ أكوم من المخدات على رأسي، أضع قطناً في أذني. وأدركتُ أن الأوضاع كانت منذ البداية سيئة، والآن هذه الأصوات لا تأتي من الخارج، بل من داخل جسدي، وما هذه الأساليب إلا مانعة لخروجها، وسبّبت في انعكاسها إلى الداخل أكثر؛ خاصة عندما أحاول عدم التفكير بها، حيث تسوءُ الأمور أكثر. لا أستطيع النوم، ولا أستطيع الأكل، ولا أفهم الدروس، وخلاصة الأمر بحضور نعيم لم أعُد مرتاحة، ولأني وظّفتُ كلّ سمعي وعقلي لأصوات ذلك القسم من البيت، تخيّلتُ أنّه هو أيضاً جهّز أذنه لالتقاط أيّ صوت صادر مني.

ما يحفظُ الفاصلة بيني وبين ذلك الرجل هو بابٌ يفصل بين غرفتينا، لذلك يؤكّدُ دائماً على إغلاقه، وأنا نفسي أغلقهُ وأتأكد منه بدقة مُتناهية. ومع مرور الوقت، غرست وهماً من هذا الباب في قلب نعيم المسكين، لكي لا يقتربَ منه إلا في حالة اضطرارية. عندها يضربُ الباب ثلاث ضربات ويبتعد عنه بما تسمحُ به جدران الغرفة.

لم تكُن لنعيم حاجة ليقتربَ من غرفتي، ونادراً ما يقترب منها. ومنذ اليوم الأول، تطوّع ليستخدم الحمام وأنا قبلت، إذا كان هو نفسه يريد ذلك فرفضي حماقة، ورغمِ قلّة مُروره عبر غرفتي، ولكني كلّ دقيقة أعبر من غرفته، كلّما أردتُ فنجان قهوة، أو ماء، أو مراقبة الأكل على النار، وطبعاً كلّما أردتُ الخروج من البيت، لأنّهُ ليس هُناك باب في غرفتي يؤدي إلى الخارج، والخروجُ سن نافذةٍ في الطابق السّابع أمرٌ لا يُستساغ بَعد.

Twitter: @ketab_n

لو ضجر نعيم من جيرتي، لم يكن أمامه إلا الرحيل، وكنت آمل عن قريب أو بعيد، وأرجّحُ القريب منه أن يصل إلى هذا الرحيل.

لقد سئمت إزعاجات مسيو خوان، فلكلّ علاقة حدود، وخاصة مع صاحب النزل، وهذا ما أذكّرُ نعيم به دائماً، لا بل دائماً ما أعطيه دَرساً في طبيعة الحياة، خاصّة درس الحياة المُشتركة، ما الذي يميز الحياة المشتركة، وما هي الحقوق المُترتّبة علينا في مثل هذه الحياة، وما يجبُ ألا نقوم به؛ ليس لدينا حق في أن ندعو من نريد متى ما أردنا، ليس لدينا حق أن نستخدم الهاتف متى ما أحببنا، ليس من حقنا العودة إلى البيت بعد منتصف الليل، ليس من حقنا في الوقت الحي من النهار مُشاهدة التلفزيون، هذه الأعمال للوقت الميت من النهار، وبالضبط عزل الأوقات الميتة عن الحية كانت لصالحي فقط.

نعيم غارق في صمته يتابع مُحاضرتي، ويهز رأسه مُؤيداً حديثي، وفي النهاية يقومُ بأمر ليشعرني أني أفهم، وأني أرقُّ إنسانة على وجه الأرض، وهذه الأفكار النيرة لا تصدرُ إلّا عن عقلٍ مثل عقلي فقط.

Twitter: @ketab_n

-٣٧-

توني يُحبُّني؛ في حضوري يتعاملُ معي بحنان، وفي غيابي يذكُرني بكلّ خير. وفي كلّ دقيقة يحضر لي أكلة لذيذة، وكانت علاقته مع نعيم جيدة أيضاً.

ولكن تعامله معي كان شيئاً آخر، كان يُناديني باسمي، ويُصرّ على ذكر "la petite iranienne" وهو يذكُر الشاه ويفرح باحترام شديد، مُرفقاً ذلك بكلمة "أصحاب الجلالة"، كان يؤدي التحية العسكرية، ويقول: "أفعلُ هذا لأنه كان عَسكرياً". يعرفُ أنّ فعلهُ هذا يزعجني، لذلك يكرّرُه حتى يرتفع اعتراضي، عندها يضربُ يديه الكبيرتين مُصدِراً ضجّة.

يا غورلتي النصف، تظهر سعادتك مثل أبناء جنسك تماماً.

Twitter: @ketab_n

-٣٨-

المصعد مُعطّل وليس أمامي إلا صعود الطوابق السبعة بحملي، عن طريق الدرج المُلتوي والضيق والذي لا يستخدمه إلا قاطنو الغرف التحتية.

تذكّرتُ بيت جدتي، وذهابنا إليه مرّتين في العام من كلّ صيف، وبقاءنا خمسة عشر يوماً برفقة الخالات، وأبنائهن في ذلك البيت الواقع خارج العاصمة، ومع اقترابِ الغروب نقوم نحن الثلاثة عشر حَفيداً بحمل الأغطية والأفرشة على رؤوسنا عابرين بحذر الدرج الضيق والممتدّ لنصلَ إلى السطح. سعيدُ الحظ من يصلُ أولاً، فيهجمون على قلب السّطح المفروش بالملاءات حتى يكون وسطه من نصيبهم. كُنّا أطفالاً ونخافُ النوم بعيداً، لأنّ الجن والإنس والشيطان والأرواح الخبيثة والصراصير والعقارب والسراق وآخرون يتربّصون بمن ينامُ في الجوانب، ومن رقدَ في الوسط لا يقتربون منه. كنتُ صغيرة، وعادةً ما يكون نَصيبي أسوأ الأمكنة.

عندما تنامُ الأصوات وتنتظمُ الأنفاس، تبدأ حكايا ليلي، فأنكمش من الخوف، وعلى قدر استطاعتي ألتصق بمن رقدَ بجانبي. رغم كل ذلك، أشعرُ أن هناك من يقتربُ مني من الخلفِ أحياناً، أسمعُ صوت أنفاسه، وأشعر برطوبة أنفاسه.

لا يهابُ أحداً، وتحرقُ ناره كل حي- لم أجرؤ أبداً على الالتفات لأراه- يجر أحياناً ظفيرتي الفرسية بكلّ وقاحة. أبكي ألماً، أكتم صرخة، ثم ينساب السائل الأصفر الدافئ. من حسن حظي بأني ما أن أدخل في التفكير بثيابي وفراشي المُبتل، يأخذني النوم.

وفي صباح اليوم الثاني، يُنسى كل شيء تحت أشعة شمس الصحراء، والغبار الصاعد من جراء ركض ثلاثة عشر حفيداً.

Twitter: @ketab_n

-٣٩-

طوال الأربع والعشرين ساعة، كان لي أسلوب تعامل مع نعيم يختلف من ساعةٍ إلى أخرى. رغم ذلك، كان تعاملي أكثر الأوقات معه رسمياً، وقد يكون هو مُترفّعاً عن هذا الموضوع، وأحياناً يصبحُ خَصماً، وفي أحيانٍ أخرى أتعاملُ مع رفيق سكني بصورة كأنه قاتل والدي.

على أيّ حال، أفزعُ في الصباحات من رؤية الرجل الذي ينامُ خلف جدار غرفتي. أشعر بالغربة وأحدثه بضمير الجمع، وعندما أريد الذهاب إلى الجامعة قلّما أتحدث أو أنظر إليه.

ثم أعود إلى البيت في الساعة السادسة مساء تعبة وعصبية، وفي مثل هذه الحالات أتمنّى عدم مُصادفة نعيم، لأن حُضوره يشعرني بأني لست مرتاحة في بيتي، ولكن نعيم يُحضر الشاي، فأتشمم الرائحة التي تصوغ صداقة ومحبة، ودائماً ما تكون رائحة الشاي هكذا؛ إنها تُخفّف وحدتي وتسكن غضبي، فآخذ دوشاً مُباشرة. وبعد عودتي من غسل الأموات، يجب أن أستحم حتى لو أجبرت على الاستحمام بماء المجاري، فحركة الماء على بشرتي تمَحو قسماً من غضبي؛ القسم الآخر من غضبي يتلاشى بالنظر إلى عيني نعيم المُنتفخة إثر ساعات السهر والقراءة، فأنظرُ مباشرة في عينيه، وأرسم ابتسامة، وبرؤية نعيم لهذه الابتسامة التي تُشير إلى بداية مَراسم شرب الشاي، يقوم من مكانه وهو يتمطّى، ثم يضعُ دفتره في زاوية، ويأخذُ كأسي الجعة ليملأهما من سائل الشاي الأخضر.

Twitter: @ketab_n

-٤٠-

أمي تخافُ الموتى، ورغم تدينها تمرّ أعوام طويلة لا تذهبُ إلى مراقد الأئمة، خوفاً من دخول جثة يُطاف بها حول المرقد، وتواجه النعش. لذلك كانت تُسلّم على الأئمة وتبعثُ تحياتها من السيارة، وتقولُ أنهم أعلمُ وأدرى بحالها، ولا يطلبون منها أكثر من ذلك.

وبعيداً عن الأئمة، نحنُ أيضاً نعرفُ مزاجها، ولذلك ننقل لها أخبار من رحل، إن كان من النوع المفاجئ أو غير المفاجئ مُحرّفاً، رغم أن تحريف الموت المُفاجئ يورّطنا بمشاكل عديدة لأنه علينا طوال أيام أن نمحو الميت المسكين من صَفحة الحياة، وكأنه لم يولد. وفي مثل هذه الحالات، علينا أولاً إيصال الخبر لها بصورة اعتيادية، إذ يُعالَج بسهولة، وأمنا لا تنسى وتحرّضنا بشهامة وشجاعة على إكمال الخبر:

"أنتم تكذبون؟"

وعلينا أن نجيبها:

"قسماً بالله.. لماذا نكذب؟"

وتعتبر هذه من الحالات النادرة التي تتقبّلُ فيها أمنا كذبتنا، ولا تمارس أسلوب استجوابها معنا. نحن نعرفُ جيداً نفسيتها، ونعرفُ أنه ليس علينا الانخداع بمظهرها بعد سماعها الخبر.

سيناريو "الموت حق" ولكنه للجيران وليس لنا، يقامُ ما يقارب سبع أو ثمان مرّات، حتى نصل إلى الدفن، ومن ثم اليوم الثالث، واليوم

Twitter: @ketab_n

السابع لمراسم الميت، وفي هذه الأثناء نلبس السواد بعيداً عن أعينِ أمي، ونشاركُ في نهاية مَراسم العزاء حتى تهدأ الأوضاع. هو ذا يذهبُ الميت إلى الدار الباقية ويبقى أهله في الدار الفانية، وتتحوّل الصرخات والصيحات إلى بكاءٍ صامت، عندها تتساءلُ أمي فجأة في صباح أحدِ الأيام:

"أنتم تخفون عني شيئاً؟"

"ماذا نخفي مثلاً؟"

"لا أعرف، ولكن إذا حدثَ شيء لأحدٍ أخبروني. أنا الآن لدي طاقة على تحمل الخبر".

وهي لا تأتي على ذكر الموت أبداً، وفي مثل هذه المواقف تستخدم "شيء"، ونحن أيضاً في حُضورها، نبقى مُنتبهين، ونقلّدها في استخدام تلك المفردة:

"لا ياسيدتي ما هذه الأفكار؟ لم يحدث لأحد شيء".

"إذا لم يحدث لأحد شيء، لِم هذا الهمس؟"

"وهل عندما يحدث شيء يهمس الناس ؟"

ولا تتراجع عن موقفها، نعرفُ أنها في عمق الحدث، وإذا سمحت لها حالتها النفسية والجسمية لذكرته هي بلسانها.

Twitter: @ketab_n

-٤١-

مع اقتراب وقت الطبخ، وإن كان مازال الجليد المحيط بالأغذية في حالة ذوبان، ولكن نعيم يقترحُ أن يطبخ هو. وتتم الانفعالات الفيزيائية بسرعة أكبر. دائماً ما كان متطوعاً لهذا العمل، وطوال هذه الفترة كان لديه ما يقوله، ويدور حول أرضه ووطنه، يقول:

"الكثير منا نحن الأفغان لا يغسلون الأرز مثلكم أنتم الإيرانيون".

"ذكرتَ لي هذا سابقاً".

"هل قلتُ لكم أننا لا نُعدّ الأرز مثلكم؟"

"نعم".

"ماذا قلت لكم أيضاً؟"

"بعض مواطنيك يطبخون الأرز، ولكن اللحم يأكلونه نياً، وحساؤكم يشبه المرق، ومرقكم يشبه الحساء".

أثناء التهام البوراني- الباذنجان مع اللبنة المجففة- وهم يطبخونها بالطريقة ذاتها في إيران، ورغم أني لم أكن مُهيئة لأعترف له، ولكني شعرت باقترابي أكثر منه، فحدثته عن بلدي وعن عائلتي، إلا أنه لم يتحدّث أبداً عن عائلته. كان يتهرّب من أسئلتي ثم يدخل في نوبة صمت.

نجبر في آخر المطاف على التحدث عن أصدقائنا، ونخرج القصص من كيس ذاكرتنا لنتقاسمها، فكان جمع الأواني وغسلها علي، مع ذلك

Twitter: @ketab_n

يرافقني نعيم في هذه العملية إلى أن أنتهيَ منها، ثم موعد التلفزيون إن كان هناك برنامج جيد للمُشاهدة، ثم اقتراب وقت نومنا، ووقت تنظيف أسناننا، وغسل أفواهنا بالملح والماء، ثم ارتداءِ ثياب النوم، وإن لم تكُن لدي ثياب نوم حقيقية- يعني لم تكُن هناك حاجة لها، وأريدُ أن أقول أيضاً أن ثياب نومي هي ذاتُها ثياب صحوتي، وهي مُتهرئة وقد فقدَت لونها- رغم ذلك هي ثياب نوم، النوم يتداعى النوم، وبإمكان السرير أن يجمعَ شخصين، وإن كان سريري وسرير نعيم لشخص واحد. على أي حال، ومع قدوم النوم وهجوم الأفكار السيئة وغير اللائقة- قد تكون جيدة ولائقة- المرتبطة بالنوم، يتحوّلُ تعاملي معه رسمياً وأناديه بـ "أنت".

Twitter: @ketab_n

-٤٢-

جافاني النوم ثلاث ليالٍ. أبقى مستيقظة إلى الصبح أنظر ليدي، وكأني أراها للمرّة الأولى. حدث هذا أول مرّة حين تناولنا العشاء، ما إن رفعت يدي باللقمة ووقعَت عيني عليها، حتى شعرتُ بأنها ذاتها التي أغسل بها الموتى، والآن أضعُ بها اللقمة في فمي، ولا أقدرُ إبعاد عيني عنها. أعتقد أنّها أصبحت حائلة، وشعرتُ تجاهها بشعور غريب.

"قولوا جديداً؟"

مرّت فترة حتى اعتدتُ على طريقة حديث نعيم، منها هذه الجملة، إذ لا أتفاعلُ معها لأني لا أفهمُ فحواها.

هززت رأسي نافية، أي ما من جديد عندنا، والله وحده يعلم أننا عندنا جديد وأي جديد! ولكن ما الذي أقدرُ على قوله؟ مرّة أخرى انشغلتُ بيدي، يجب أن أعتادَ عليها، على أيّ شكلٍ كان، وأن أعرف كيف أحبّها مرّة أخرى، وإلا لن يُمكنني العيش، فبلا يدين لن أقدر أن أكملَ حياتي، ولكن كيف سيتسنّى لي النظر لهما مثل السابق؟ لقد تَغيّرتا وكأني اقترضتهما من الموتى.

Twitter: @ketab_n

-٤٣-

بَقيت درجات قليلة لأصلَ إلى الطابق السابع، إذ وقع نَظري على بوجا، كانت تقفُ في مُثلّث يفصلُ بين المصعد والدرج والحمام.

"لماذا لم تصعدي بالمصعد؟"

"لأنّهُ مُعطّل".

هزّت رأسها دلالة على النفي، وأخذ تُحدّث نفسها. كانت تمسك المصعد مانعة إياه من الحركة وهذا ما جعلني أظن أنّهُ مُعطّل، وبدل الاعتذار مني، هزّت رأسها لتشعرني أني حمقاء، إذ لا أعرفُ كيف أشم يدي.

"كان عليك أن تصبري".

قد تكون هذه الفتاة الهندية الوحيدة في العالم التي تستخدم، يجب ولايجب، أكثر مني.

بوجا في بعض الأيام لا ترتدي الساري، في تلك الثياب الملونة بإمكان المرء تحملها، شعرها الأسود المُتراكم المعقود مثل حبل، وهو يأتي من خلف أذنها اليمنى مُنحدِراً يُكاد يُلامس فَخذها، وهي ترتّبه بهذا الشكل حتى يكاد يشبه مِكنسة الكناس بخُشونته وعدم تنظيمه. عندما لا ترتدي الساري، يعني أنها تعتزمُ الذهاب إلى السّفارة الأمريكية. تمرُّ أربع سنوات منذ محاولتها الحصول على تأشيرة دخول، وطوال هذه الفترة على الأقل تذهبُ للسفارة في الشهر ثلاث مرّات، فتلبسُ الجينز الضيق بدل الساري، لتتعاونَ هذه الثياب على إظهار مَفاتنها، وحتى لو لم ترتدي هذه الثياب الضّيقة فجسدُها يُظهِر مفاتنه.

Twitter: @ketab_n

ألقَت بوجا نظرةً عَلي وعلى حقيبة الشراء، أعرفُ أنها الآن تودُّ لو تعرف ما تحتويه. أهم ما يشغل بالها وتريد الحصول عليه في بداية يومها هو: أين كنت البارحة؟ مع من، وكيف قضيت الوقت؟ النقطة الثانية التي يجب أن تعرفها من مُحدّثها هي ماذا أكلت؟ هذا إذا مرّ وقت الأكل، وإلا فإنها ستسأل:

"ماذا تردين أن تأكلي؟"

Twitter: @ketab_n

-٤٤-

لا أحدّثُ نعيم عن عملي الجديد، وهو لا يفتح الموضوع معي. سألني مرة واحدة فقط:

"هل أنت راضية عن عملك؟"

وأنا أهز رأسي بطريقة تشي أنها لا نعم، ولا لا. كلما طرح موضوع عملي، أصابُ بالخرس. استطعتُ الاتّكاء على الكذب، فلن يُصيبني مكروه، ولست أنا تلك الإنسانة الصادقة، رغم ذلك أصاب بالبكم والخرس، يتعطّلُ ذهني ولساني ولا أقدرُ على صياغة جمل أحتمي بها.

نعيم مَشغول ببحثٍ جامعي لأحد طُلاب البكالوريوس في الجامعة، ويحصل على مِقدار مال يُعين حسب مَوضوع الرسالة والفرع، يقول بأنه درس في بلاده علم الاجتماع، وفي روسيا الأنثرويولوجيا، ويُراجع أحياناً رسائل لا ترتبط بعلم الاجتماع ولا الأنثرويولوجيا، ولكن نعيم يستلمُها ويقول أنه بإمكانه إنهاؤها.

لكني لا أصدقه، وإن لم أكُن في حالة جيدة لذكر الأدلة على عدم قدرته، ولستُ في حالة تسمحُ لي للاستماع للخطب والشعارات وما تخلفه، وأخاف من الانجرار إلى مُشاحنة، وفي إحدى الليالي لم أتحمّل، وقُلت:

"كيف باستطاعتكَ التعامُل مع كلّ هذه الفروع؟"

"لستُ مُطّلعاً على كلّ الفروع، ولكنّنا نعرفُ منها واحداً أو اثنين".

"ولكن الأمر تعدّى الواحد والاثنين، تقول بأنك درستَ علم الاجتماع

Twitter: @ketab_n

والأنثروبولوجيا، ولكنك تكتبُ رسائل في السياسة وفي الفلسفة، وغيرها مما لا علم لي به.."

"لا تُشغلوا ذهنكم بهذه التفاهات، لا أهمية لها".

"ولكني أعتقدُ أن علي أن أعرف منك أنت يا مَن تقولُ أنك تعرف كل هذا؟"

"هل تريدون معرفة وقته؟"

"نعم".

"هل تقصدون وقتهُ التخميني أو الدقيق، يعني تعرفون اليوم والساعة؟"

كلّما شعرت بغضب، وأردتُ إنزاله على أحد، أذهبُ لنعيم لأنّهُ في متناول اليد، ولم يكن لي أحدٌ غيره، ونعيم يفطن بسرعة من طريقة حديثي من المفردات والمصطلحات التي أستخدمها في مثل هذه الأوقات، ويفرُّ من يدي كسمكة.

Twitter: @ketab_n

-٤٥-

بعد تأخيرٍ يطول لثلاثة أو أربعة أسابيع، نُخبرُ أمي بالحدث، ونُنبهها على موعد زيارة أهل المتوفى، وعندها تتحمّلُ وظيفة صَعبة علينا أن نتلفن لأهل المتُوفى، ونقول لهم بوقاحة مثلاً: "صحيح أنهم فقدوا أمهم، ولكن عليهم مُراعاة حالة أمنا، وأن لا يمتنعوا عن الصراخ واللطم فقط، بل حتى من البكاء الخفيف، فضلاً عن عدم ذكر الموت بحضورها أو الإشارة إليه، لا من بعيد ولا من قريب"، وننهي، مشيرين إلى أن مَجيئنا لم يكن سوى زيارة عادية.

في طريق العودة، تنسى أمي كلّ شيء، لا تذكر المتوفى، ولا تشير إلى وجوده السابق.

إذا أرادَت أمي عدم سماع شيء، فهي لن تسمع. إذا أرادت عدم الرؤية، لن ترى. إذا أرادت أن لا ترى أو تسمع شيئاً، فهي تقدر على فعل ذلك. ويبدأ تكذيب الموت من تكذيب الدلالات، مثلاً عندما تبدأ يومها بالسلام على جار، جدار بيته لصق جدار بيتنا، ثم يموت. فإنّها لن تهتم بصوتِ قارئ القرآن، ولا تدل ملامح وجهها على حدوث طارئ، ولا تذكر اسم الميت، وكأنه لم يكُن له وجود.

Twitter: @ketab_n

-٤٦-

عندما يخطئ سهمي ويصيب حجراً، ولا أقدرُ على إثارة غضب نعيم، أعرجُ على مُعتقداته، لأني أعتقد أنه شيوعي، وعندي دليل على ذلك. أولاً أنه درس في روسيا، وعلاقته جيدة مع مسيو خوان ثانياً، وهو أكثر منطقية من الأول لأن صاحب نزلنا لا يتعامل مع أحد لوجه الله. عندها بأي شكل كنت أربط كل عمل أو نشاط لنعيم بعقائده، وكأقوى ضربة أوجهها له، أجرّه إلى الأخلاقيات:

"لا أعتقدُ أن عملك هذا صحيح من الناحية الأخلاقية!"

"أي عمل غير صحيح من الناحية الأخلاقية؟"

"العمل السابق الذي يعطيك خبزك".

"وهل تعتقدون أن كتابة الرسائل الجامعية ترتبط بالأخلاقيات؟"

إذن، كتابة الرسائل الجامعية لا ترتبط بالأخلاقيات، ولكن لو فعل إنسان آخر هذا العمل فهذا استثناء، وهذا الإنسان نفسه سينهي دراسته، ويعمل في إدارة، وسيتعاملُ مع المراجعين... كنت أحكي عن المراجعين المُحتملين لطلاب نعيم الذين يكتبُ رسائلهم الجامعية. فَجأة تذكرت مراجعيني وسكت، لكن نعيم ينتظر نهاية حديثي:

"ماذا حدث؟"

"لاشيء".

Twitter: @ketab_n

"لماذا لا تكملون حديثكم؟"

رفعت كتفي سائمة.

"هل صحتكم جيدة؟"

"جيدة، ما الذي ذكرك بالصحة؟"

"لأن لون وجهك هرب".

هؤلاء الأفغان الملاعين لا يتكلمون، بل ينشدون شعراً.

نعيم يُحدّق في عيني مُنتظراً انتهاءَ حديثي، وكنت مُتردّدة في الحديث عن عَملي. مع ذلك لم أقل شيئاً، غَسلُ الموتى عملٌ صعب، والأصعب الحديث عنه، فسكت. نعيم أيضاً سكت، كل البيت في لحظة غرق في السكوت، حتى الساعة الجدارية كأنها نسيت دقاتها، صوت مَاكينة الثلاجة انقطع أيضاً، فجأة انزلق الكوب الذي أمسكه وقد نسيته، فسقطَ على الأرضية مُتشظياً بصوت مُفزع.

Twitter: @ketab_n

-٤٧-

صُراخ المرأة الأفريقية هزّ البناية، لا أعرفُ عن البقية، ولكن حياتي اختلت، ورغم ذلك كان زوجها يضحكُ لقرب قدومِ طفل جديد، ومن فرحته يريدُ الخروج من جلده ليطمئنني، قائلاً:

"لا تخافي أمر طبيعي".

ألمُ امرأةٍ أمر طبيعي عنده، ورفض اقتراحي لأخذِ زائو إلى المشفى قائلاً:

"لم يحِن وقتها بعد".

وأضافَ، ضاحكاً:

"أقبلي.. أنا لدي تجربة كبيرة في هذا المجال".

وبكل سَماجةٍ عرض تجاربه لي، وأمام الأطفال، وفي حين أن المرأة المسكينة كانت تتلوى من شدة الوجع في الفراش وتعضّ على الشرشف، جلس هو على الكنبة وبكل برودة أعصاب راح يضغطُ على أرقام الهاتف ليتحدث لأصدقائه ومعارفه بصوت عالٍ، وبلغته المخربشة عن طفله القادم، فاتحاً ما بين قدميه، كأنّهُ هو من سينجبُ الطفل. التضاد بين لون حذائه البراق وثيابه لم يتركا لي مَجالاً لإبعاد نظري عنهما.

على الرجل، وحسب العادات الأفريقية، ألا يجلس هادئاً، وهكذا هو جارنا، يثرثر ويمرّر أصبعه الأسود الغليظ في كلّ ثقب من جسده، أي أصابع هذه وأي عمل تقوم به؟ هي أقربُ إلى المفك، وفي كلّ ثقب أو مَنفذ يديره يخرج مُفتخراً حاملاً أشياء بأشكال وألوان مُختلفة. تبدأ من

Twitter: @ketab_n

زوايا العين، ثم الأذنين، وبعد ذلك يدخل سبابته حتى النصف مُحرّكاً يده إلى الأعلى والأسفل بسرعة، ويصل دور أكثر الثقوب تفريهاً وأكثرها أخذاً للوقت؛ وهو الأنف، عندما يدخل أصبعه إلى نهايته في الثقب، ومن شدّة فرحه و التذاذه ينتشي، يغمض عينيه ويرسمُ ابتسامة عريضة. لا تراجع عما يقوم به؛ فلا يهدأ له بال حتى يُنهي التنظيف الكامل، ولو أخذ الأمر وقتاً، وما المانع؟ المهم هو النتيجة!

Twitter: @ketab_n

-٤٨-

الاختلافُ الوحيد بين عبد الحميد وبنغوئن، هو أن بنغوئن بشرته سوداء وصدره وبطنه بيضاوان، بينما عبد الحميد بشرته بيضاء وصدره وبطنه سمراوان، وطريقته في المشي صورة طبق الأصل عن هذا الحيوان المَحبوب. سمين للغاية، ويلصق رجليه خاصة عند ركبتيه، مما يؤدي إلى نُزوع خطواته إلى الخارج. فراحتاه دائمتا التعرّق، إلى حدّ أنه كلما صافحني، أجبَرُ على مَسح يدي بثيابي.

نادراً ما يخرج من مكان غسل الموتى أثناء العمل، إلا إذا أجبر، كقدوم شخصية مهمة أو هاتف أهم يطلبه، فيخرج مسرعاً ويعود مسرعاً أيضاً.

عندما يعود إلى مكان غسل الموتى يعودُ مُتهالكاً، وهو يتنفّسُ بسرعة، مُصفر الوجه، ويرتدي أثناء العمل دشداشته المبللة فتلتصق عليه، ولكي لا تعيق حركته، يرفع أطرافها بيده، ومن الممكن أنه يملك دشاديش بعدد أيام الأسبوع، أو حتى بعددِ أيام شهر، لا أعرف. على أيّ حال، فإن ثيابه كانت دائماً نظيفة ومكوية، وكأنه ينتظر قدوم الملك، مُتعطّراً بعطر دنهل Dunhill الذي يطغى على كل الروائح الاخرى، حتى رائحة الموتى.

ويتلذذ زميلي بكل لحظة يقضيها هُنا إلى جانب الموتى، ودائماً يتحدّث عن طريقة التعامل مع الموتى، وهو التعامل نفسه الذي لم أستطع حتى تطبيقه على الأحياء. إنّهُ يتحدّث عنهم بعطف وحنين، ويذكرهم بصورة كأنهم أحياء أكثر ممّن هُم على قيد الحياة يُراقبون من حولهم.

وعبد الحميد يحب عمله، ويتحدث عنه بصدق، وعندما يتحدث عن

Twitter: @ketab_n

كيفية غسل الميت يسيل اللعاب من سامِعه لدرجة تمنّيه أن يموت، حتى يكون بين يديه ليغسله.

"تعرفين؟ أنا أحب الموت، وأحب الأموات أيضاً، فرداً فرداً. لا أبكي من أجلهم أو أصرخ، لأني أعتقد بعدم حُدوث مكروه لهم، وأنوح ما حفظته عليهم من الشعر، شعر كبار شعراء العرب، شعر في وصف الموت".

ثم يُغني لي نموذجاً منه، مُحرّكاً رأسه يميناً وشمالاً. يملك عبد الحميد صَوتاً جميلاً، خاصة عندما يغني في مكان غسل الأموت المغلق، فيترك صوته أثراً أكبر على المستمع. رغم أني لا أفهم حرفاً ممّا يقول، إلا أني أتأثر بشدة، صوته العذب يُحلّق من صالةٍ إلى أخرى، مما يضفي عالماً روحانياً على مكان غسل الموتى. يسكتُ الأحياء مثلما يسكت الموتى وهم يستمعون للصوت الملكوتي.

أغنية عبد الحميد تمزج الموت والحياة هنا ليتوحدا.

Twitter: @ketab_n

-٤٩-

أصابني ألمٌ وجداني ولا أعرفُ ماذا أفعل، بيت جيراني مملوء بالوساخة، وقطعُ خبز وبسكويت وشيبس، وأنواع أخرى من الأغذية سدّت كلّ منافذ البيت، وكأن هُناك من تعمّد إخراج كل ما في الدواليب والأدراج وجرّها إلى وسط الغرف. الأطفال متسخون ويحتاجون لحمام آخر، عنقودهم عار، وأينما جلس يخلف دائرة.

صممتُ على البدء من مكان. حاولتُ بدايةً إرجاع ما أخرج إلى مكانه، ولا أحد بإمكانه المُشاهدة في لمّ شتات ما تفرّق، لأنهم لا يعرفون أين مكان الأحذية أو الثياب المتسخة أو مُشتريات اليوم السابق التي بقيت إلى الآن وسط المطبخ. سبعة أسطل قمامة من الحجم الصغير والكبير نثِرَت في أرجاء البيت؛ أربع منها في غرفة التي أخذَت مكان المطبخ، والبقية في الغرف الأخرى. أسطل تسيلُ الزبالة منها.

الرجل مازال مشغولاً برصّ الكلمات على الهاتف، وعندما تلاقت عيوننا أرسل إليّ ابتسامة باردة، باردة لدرجة رجحت إزاحة وجهي عنه، لأوحي له بأني لا أراه، ولا أرى ابتسامته.

قطع اتصاله وذهب مُسرعاً إلى الغرفة التي قبعت فيها زوجته تتألم، ولكنه لا يضحكُ الآن، بل هو مثل طفل مَحروم لخبطت لعبه. أمسكت المكنسة الكهربائية وحاولت بقدر استطاعتي تنظيف المنزل. شعرتُ بأن هناك من يناديني، ولكن ضجة المكنسة وصراخ الأطفال وصوت التلفاز أنستني الصوت المنادي.

Twitter: @ketab_n

أعرفُ طبائع بوجا، لذلك أبتعدُ عنها حتى لا تقتربَ من حياتي وتدخِلَ فيها الحسرة، ولكني أخِذتُ ذلك اليوم على حين غرة. كنت أعبر من جانبها وفجأة سمعتُ قهقهتها، نظرتُ إليها، فأشارت إلى حقيبة الشراء وضحِكَت مرّة أخرى. احترتُ معها، لم أفطن بعد إلى ما تقصده، ولكني قلت لنفسي فلتضحك حتى الموت، سوف أكملُ دَربي، فجأة بادرتني بالحديث:

"معرفة هذه الأشياء ليست من اختصاص أي أحد".

من ناحية أخرى، لا أحد يجاورني ليكيل لها المدح، أو يتملقها فهي تقوم بهذا الدور لنفسها وبإسهاب.

"أي شيء؟"

"نظرة إلى داخل الحقيبة".

نظرتُ إلى داخل الحقيبة:

"حسناً".

"ألم تعرفي؟"

بوجا تحبُّ رمي عدم المعرفة أمام وجهِ حاملها، ودائماً فمها مملوء بهذه الأسئلة: "ألم تعرفي؟" "لم تفهمي؟" "ألا ترى؟" "ألا تذكُر؟"......

"كل ما اشتريتيه يحمل ماركة حمراء".

Twitter: @ketab_n

"حسناً، فليكن".

"إنّها علامة شراء غير عادية".

"طيب".

عندما أراها متحمّسة لرؤيتي، أمثل دور الحمقاء التي تحبها، وأشعرها أني تلك الحمقاء التي تظنها بل أكثر؛ من لا أفهم ولا أرى ولا أسمع ولا أتذكر، بل حمارة، بكل ما تحمله الكلمة من استحمار.

Twitter: @ketab_n

-٥١-

عشقُ المسيو خوان وخطيبته لافاشكيري يُشبه حبي للقطة، وكلما رأيتهما مجتمعَين، أسألُ نفسي: "ما الذي يجمع بينهما؟"

لم أستطِع أن أسأل المسيو خوان، ولكن في ذلك اليوم دفعتني فكرة البحث عن هذه العلاقة، فاقتربتُ من دومينيك وجلست قربها وأنا أنظر للجبل اللحمي المُتراكم، وبركة السوتيان الجامع لثدييها من البطن إلى قرب الرقبة. قلتُ لها بصوت يدلّ على صداقة قديمة:

"أنا سعيدة جدا أن مسيو خوان لديه صديقة مثلك".

ابتسمَت وهزت رأسها مؤيدة لي، وخرجت كلمة "مرسي" خجولة من بين شفتيها. خرجت مثل آخر ما تبقى في القدر ذلك الذي لا نميل لأكله. كم كانت تشبهُ الملكة فكتوريا في هذه اللحظة! ورغم ذلك، حتى مراسم تكريم الملكة فكتوريا المائة، لن تستطيع أن تكون لي بلسماً في هذه اللحظة. أنا أبحثُ عن أجوبة، وهي تصمتُ لتنهي حديثاً للتو بدأ. تضايقت، حاولتُ مرّة أخرى معها:

"مُطمئنة أنا.. إنكما تناسبان ببعضكما".

دومينيك هذه المرّة، بلا ابتسامة أو شكر، تلفظت "أو هوم"، الفرنسيون يعرفون جيداً كيف يصمتون، يحدّقون في عينيك بأعينهم العطوفة بلا توجيه كلمة واحدة، لا يسبونك، ولا يتحايلون عليك، ولا يطردونك، ما يقومون به هو إطالة التحديق في عينيك بكلّ روية دون أن يجيبوك.

Twitter: @ketab_n

الآن، سوف تقول شيئاً. هذا ما دار في عقلي الشرقي، وهذا ما تقوله نظرتها لي، حتى أنها ابتسمت ولكن لم يبقَ أمامي إلا أن أفسّر سكوتها بمعنى آخر.

دومينيك فرنساوية، ومن ذلك النوع، نوع إبن الكلب. لو أنها كانت يونانية أو إيطالية أو حتى إسبانية لتجاوبَت معي، ولكنها للأسف فرنساوية ومثل أغلب مواطنيها تُفكّر بأنانية، إذ أن خصوصياتها تخصّها وحدها لا غير، تقوم وتسيرُ بخُطى واسعة وكأنّها لن تستطيعَ الإمساك أمام ما يركض في بطنها. أنظرُ إلى قوام دومينيك المعوج، وأتحسر على حال مسيو خوان، بيد أن مسيو خوان نفسه يحدّق فيها بصورة تُجبرني على إبعاد نظري إلى الجدران والأبواب.

Twitter: @ketab_n

-٥٢-

أحسستُ بكتفي تمتصُّ ضربة. إنه غام، كان يرطن هذه المرة باللغة الفرنسية. طريقة حديثة هي نفسها تلك الطريقة المتداولة عند الإفريقيين، مع كلّ كلمة طشت ماء. بصعوبةٍ كنتُ أفهم ما يقول، وكلّما نظرتُ لفمه بدقة، أتبلبل مع الرغوة البيضاء المُتجمّعة في زاويَتي فمه. فهمتُ بإشاراته أنّهُ علي الذهاب إلى غرفة النوم. وإلى أن وصلت إلى الغرفة، سألت نفسي مائة سؤال عما حدث وعما يحدث؟ في البداية قلقت، ثم خفت من أجل ما وصلت إليه، أو أوصلتُ نفسي إليه، ثم غضبتُ جداً، وغضبت أكثر على نفسي، لماذا يرتبط أي حدث أينما وقع بي؟ لماذا لا أقدرُ على طأطأة رأسي مثل البشر وعيش حياتي؟ على أيّ حال، ما أن رأيت ملامح وجه حنا الشاحبة حتى هدأت، من أجل هذه المرأة المسكينة سأفعل أي شيء. اقتربت منها بهدوء ووضعت يدي على جبينها، كانت حرارتها مرتفعة.

قالت كلماتها مُتقطّعة:

"هل تؤدين لي خدمة؟"

طبعاً يكفي أن تحرك شفتيها.

"منذُ الصباح لم يأكل شيئاً، لو كوب حليب، لا كوب عصير، لا..."

لكنّ الألم عاد إليها مرّة أخرى، وتصاعدَت صرخة منها لتقطع حديثها. مع ذلك، عرفتُ أن حنا في أقصى نوبات ألمها تفكّرُ في صغيرها العاري. خجلتُ من نفسي لأني لم أستطِع إدراك حنان الأم.

Twitter: @ketab_n

"رجاءً أعطِه أي شيء. الجوع يجعله عصبياً".

الحق معها. منذ الصباح وهو يصرخ ويزعق.

حرّكت حنا رأسها مؤكدة على كلامها، وقالت:

"إنه هو، عندما يغضب يصبح هكذا. كم أنا سعيدة أنك هنا. النساء الفرنسيات لا يفهمن هذا الأمر، ولكن نحن نعرف لغة بعضنا".

ثم أخذت نفساً، وقالت بلهجة الحكماء:

"ما الرجال إلا أطفال كبروا جيداً".

Twitter: @ketab_n

توني لا يحبُّ دومينيك، بل هو يكرَهُها أكثر من كرهي لها. هكذا وجدت من يُشاركني كُرهي لها، هو الوحيد الذي يفهمُني إن لم أظهِر دواخلي، ما أن ظهرَت دومينيك بقدّها الرخو، نظر إلي وقال:

"وهل هُناك من هو أكثر منها بنت قحبة؟"

واستعدّ لمضايقتها، ولأنه يعرف أن دومينيك تخافُ الاقتراب منه أو مواجهته، ذهب هو ناحيتها، وفي الوقت ذاته، غمز لي ليشير إلى تواطئي معه. انشغلت بالتمسيد على رأس سالي التي جلست تحت الطاولة وأنا أخفي ضحكي، لكن نعيم لم يحرّك ساكناً، وكأن شيئاً لم يحدث، والمسيو خوان على الظاهر كان مُنشغلاً بالغليون، ولكنه انقلب فجأة مُخرجاً الدخان مثل التنين من أنفه وفمه، وبرمشةِ عين ملأ الصالة والمطبخ بدخان "كابيتان بلاك".

توني لم يتراجع، ولا يمكن لأحدٍ أن يقف أمامه. يعرف أنهم يتعاطفون معه، وهو من جانبه يستغل هذا العطف. تتظاهر دومينيك بأنها سعيدة لحضور توني، فكانت تردّد جملاً، مثل:

"كم جميل! أي جار جيد سيكون بقربي".

وتوني يدمدم:

"لست برجلٍ إذا سمحتُ لهذه القبيحة القدوم هنا مرة أخرى".

ويصرُّ على الرهانات معي على هذا الأمر، هذه عادة الأمريكيين، منشغلون بالمراهنة ويستمتعون بها، ولكني لستُ مُستعدة لهذا، وأرجّح أن أقدم نذراً للأئمة لأن نتيجته يمكن الاعتماد عليها أكثر.

Twitter: @ketab_n

أغلقتُ الباب بشدّة. رفع نعيم رأسه ونظر إلي، ليته يتفوّه بكلمة، ولو كلمة صغيرة، عندها لأخرجت أباه و أمه من تحت خروار(*) التراب المقدس لشهدائهم في أفغانستان- ومثلما توقعت كان والداه في الحقيقة في ذلك المكان- أغلقتُ مرّة أخرى الباب بقوة عندما دخلت غرفتي، دعوني أقض مضطجع الرجل الوحيد بقربي مرّة أخرى. جلست على سريري ووضعت رأسي بين يدي: "المرأة المسكينة، المرأة المسكينة"، لا أعرف أي إمرأة قصدت ، تلك التي جلست في غرفتها تتلوى ألماً وهي تفكّر في زوجها أم أنا التي قصدتها لمُساعدتها وكل ما فعلته هو إضفاء جو لراحة رجل البيت.

لم أعُد أحتمل، إنه أمر يصعب احتماله، وقبل القيام بأيّ عمل علي الخروج. لست مُستعدّة للشوارع المزدحمة، في الممر لا أستطيع السير، يتبقى لي هاتان الغرفتان الضيقتان؛ الأثاث وصل إلى السقف. اللعنة على نعيم الذي سلب هدوئي بمزبلته التي أحضرها معه واحتلّ إحدى الغرف، اللعنة على مسيو خوان الذي أحضر نعيم وسلب هدوئي، واللعنة تذهب إليّ قبل الجميع لأنني لن أستطيع أن قول لهما.

مثل أجَلٍ مُعلّق فوق رأس نعيم، وقفت فوق رأسه رغم تظاهرِه بعدم حضوري.

"لماذا لا تذهب إلى المرأة المسكينة لتسأل عنها؟"

"لأننا لا نعرف عادات الإفريقيين جيداً، من الممكن ألا نعجبهم".

---

*) حمل حمار أو وزن قدره ثلاث مائة كيلو .

Twitter: @ketab_n

"حسناً، أنا أيضاً لا أعرفها جيداً، ولا أتذكر أني كنت في يوم أفريقية".

"إذاً، أنا غريب وعجيب جداً، وقد نكون عفريت؟ شيطان؟"

نعيم يتهرّبُ وهو يقوم بحركات مضحكة.

"ليس الأمر مُضحكاً"

"الحق معكم ليس مُضحكاً، أنا لست إنساناً يحسن النكتة".

"ذلك صحيح".

"عذراً، اسمحوا لنا لنكمل قراءتنا".

"ألا تمل الظهور دائماً كمثقف؟"

"لا أظن".

"المرأة المسكينة تموت ألماً، وأنت جالس تقرأ؟"

"أنتم تعرفون أننا لا نستطيع تقديم العون".

"من أين تدري؟"

"من ذهابكم وعودتكم، ويداكم أطول من الرجلين".

Twitter: @ketab_n

-٥٥-

لوكان هُناك في العالم ما يعكّر صفو بوجا لما انفعلت من هجماتها، أو لما ارتبكت لأثبت عكس ما تقول، أو على أقل تقدير لتبدل لونها من الغضب.

وعندما لا ترى ردّة فعل مني، لا تقاوم هذا البرود. في مثل هذه المواقف تتحول إلى إنسانة بلا رحمة، وتنتقل إلى لغة بذيئة:

"كل ما رأيت من بضاعة رخيصة في الجمعية حشرتيه في حقيبتك؟ سمعت أن الوضع الاقتصادي للإيرانيين مُتدهور، ولكني لم أتوقّع إلى هذا الحد، مال بلا قيمة، وبلاد بلا قيمة..."

وبعدد ما لا قيمة له في بلادي هزت كتفيها.

وأشكر الله على أن ما من أحدٍ شهد حوارنا. فعندما تهجم علي بوجا، لا يعدو الأمر سهلاً إلى هذا الحد، وبالنسبة لي، لا أستطيع التعامل مع الموقف. لكنها عندما تُهاجم قوميتي أو مذهبي، من شدّة غضبي ينزع سلاحي ولا أستطيع الردّ عليها. ما أفعلهُ هو التحديق فيها، وأتوهم أن تعاملها وكلامها يطابق ما يفعله مريخي.

لكنني واثقة من شيءٍ واحد، وهو أن تعامُل بوجا معي يزدادُ حدّة يوماً بعد يوم، وفي حال أنّنا كنا صديقتين في السابق، في تلك الأيام التي كانت عذريتها من أهم ما يشغلُني، أصبحتُ أخافُ هذه الفتاة الهندية، ولا أستطيع الوثوق بها، ولكن معاداتها من الممكن أن تنتهي بخسائر فادحة.

Twitter: @ketab_n

-٥٦-

عبد الحميد يُدنيني منه بحجج كثيرة ليبوح لي بالموضوع المهم: هل أدري أن المقابر سوف تمنحُ ميزانية ضخمة؟ هل أعرفُ أن هناك فكرة لبناء مقبرة أخرى للمسلمين، وقد طُرِحت للمناقشة؟ هل أنت في خضم موضوع بناء مكانٍ لغسل الموتى خاص بالأطفال، صالة ذات أبعاد صغيرة، أصغر بكثير من هذا، طفولية تقريباً؟

هل وهل وهل، ودائماً يتعلق الموضوع بالموت والموتى والمقابر، وأنا لم أسمع عنها شيئاً، ولا أريد أن أعرف، أو ليس كافياً حضوري للعمل وقضاء ساعتين في أحاديث عن هذه الأمور الجذابة، بل وصل الأمر للاتصال بي على هاتف منزلي.

لأول مرّة يرفع نعيم سماعة الهاتف ويتحدّث بكل هذه الأريحية، حتى ظننت أن المتصل صديق له، ولمعرفتي بأن نعيم يتحدّثُ مع أصدقائي بمثل هذه الأريحية لم أتفاجأ عندما قال بأن الاتصال لي، ولكني طرحت سؤالاً اعتدنا على تكراره:

"من؟"

"زميلك في العمل".

وأضاف عندما سلمني السماعة:

"يقولون أنهم عبد الحميد".

Twitter: @ketab_n

ذهب نعيم ليخفض صوت التلفزيون، وأنا انصدمت ولم أعرف ما علي فعله. باستطاعتي قطعُ الاتصال، وأدّعي أنه اتصال خاطئ، بإمكاني أن أقول أنه مُتطفّل، وأغلق الخط. وفكّرت بعدّة أمور، ولكني أعرف أنني لن أقوم بأي منها. كل هذه الأمور يقوم بها أي أحد، لكني لن أستطيع فعلها.

"ما بكم؟ لماذا لا تتحدثون؟"

وضع نعيم يديه في جيب بنطلونه الرياضي فاتحاً رجليه بعرض كتفيه ناظراً لي، وأنا غارقة في كشف من أين جاء عبد الحميد برقم هاتفي.

في اليوم الذي ذهبتُ فيه لإمضاء عقد العمل، وضع أمامي ثلاث صفحات، وطلب مني ملأها بدقة، وأن أتأكد من المعلومات التي أكتبها. وكنت تقريباً فعلتُ ذلك بتلك الدقة نفسها التي أرادَها عبد الحميد، ولكن ليست كلها دقيقة، لذلك كتبتُ عنوان ورقم هاتف منزلي السابق، المنزل الذي هجرته قبل أعوام، متأكدة أنا من أني لم أخلف خلفي طريقة لتعقبي ولن يصلني أحد، رغم ذلك حصل عبد الحميد على هاتفي، من أين حصل عليه؟ وكيف؟

Twitter: @ketab_n

-٥٧-

لم يكن أمراً مهمّاً أني أسخر من نعيم، فهو يغضب لكنه لا يظهر غضبه، بعكسي فأنا أنفجرُ غضباً على أقل كلمة أشم منها لمسة خصام، فأتقاتل مع من في البيت وخارجه. خلاصة الأمر، أتخاصم في اليوم ألف مرّة، وأعود لأصالح ألف مرّة، وكل مرّة أنا من يتقدّم للصلح، لا أستطيع الاستمرار في الخصام. أزهقُ، ومدة غضبي عبارة عن تنويمة نملة، وأعود بسرعة إلى طبيعتي، وكأن شيئاً لم يحدث.

أحيانا ينتبه نعيم لحالتي الخصامية، وأحياناً لا، ولكنه حين يشعر بحالتي، كان يطرح سؤاله كالتالي:

"هل أنت غاضبة؟"

ومن ثم يتأكد من عدم العودة إلى هذه الجملة مرّة أخرى، لأن تذكيري بفترة غضبي و خصامي يزعجُني أكثر من تلك الحالة التي تَستولي علي، ومع أني أعرفُ أني داخلة في خصام ولكني لا أعترف، إذ الاعتراف ليس من صالح فَتاة بعمري، لذلك أنكر:

"أنا؟ ولماذا أغضب؟"

وفي الحقيقة، لم يكُن هُناك سبب مُحدّد لأتخاصم مع أحد، خاصّة عندما ينتبهُ نعيم لنوبة خصامي ويصارحُني بها، لأنها خطوة مواساة منه لي.

Twitter: @ketab_n

-٥٨-

هذه المرة جلست بجانب مسيو خوان، وتحدثت معه بلهجة المقربين من بعض، قلت له:

"لقد خرجت من الوحدة بكل ما تحمله الكلمة من معنى".

اكتفى بهز رأسه، وكانت حركته أقرب إلى الحركات غير الإرادية، مع ذلك أكملت:

"سعيدة.. لأنك وجدت صديقة جيدة".

هز رأسه مرة أخرى ولم يتفوه بحرف، مع ذلك لم يمنعني سكوته من الاستمرار. طبيعتي إذا أزاد من أحدّثه من صَمته، بالغت في ضخّ الكلمات، وفي ذلك الوقت أصبحتُ مُتخمة بالكلام:

"الشباب يرتبطون ببعض بكلّ سهولة، لأنهم قريبون من بعضهم، ولكن نحن الذين أوشك عمرنا أن..."

لم يتجاوز عمري السادسة والعشرين، ومسيو خوان أكبر مني على الأقل بنصفِ قرن، ومع ذلك تغاضيت عن السن، وجعلت نفسي من مجايليه. المسيو خوان نظر لي شزراً، لم أفهم فحوى نظرته، هل لأني ضممتُ نفسي لجيله أو لأني جعلته من جيلي؟

على أيّ حال، بعد لحظات، وعندما شعرتُ باليأس، وبحثاً عن عذر لأتراجع به، رفعَ مسيو خوان رأسهُ فجأة ناظراً للسماء، مُتابعاً سرب طيور، وقال لي بلحن جاد، ويخلو من الاستعلاء:

Twitter: @ketab_n

"أنا ودومينيك صَديقان نليقُ ببعض.. ولكن صداقتنا ليست علاقة عابرة".

"طبعا، يجب أن تكون كذلك"

"تعرفين ..؟"

"ماذا كان علي أن أعرف؟"

"أنا ودمينيك ولأننا لم نعد شابين.. ولكن لكل منا جاذبية خاصة للآخر".

كدتُ أجن من جراء تعامله بطراوة مع عمره وعمر دمينيك العزيزة، ولكني لم أظهِر ردّة فعل.

"هل تقبلين أنها إمرأة سكسية وشبقة؟"

وحرّك يديه المُتجعدتين راسماً على صدره ثديين هائلين يشبهان ثديي دومينيك اللذين يراهما حتى الأعمى.

"ولهذا الأمر أهمية قصوى للرجل".

"طبعاً"

وتاكيداً على كلامه، هززتُ رأسي في أمرٍ لا أعرف شيئاً عنه، وبعدَ كلّ ذلك الإصرار لكشف حقيقتهما، وأنا أوشكُ الوصول إلى خيط، فدخل برجله إلى الفخّ حاملاً معه حكايته، فأصابني الخجل فجأة من حديث صاحب نزلي، من جانب آخر، لا أريد الاعترافَ بجهلي، وأن أرسم ابتسامة بلهاء بأني أفهم ما يقوله مجايلي لي.

Twitter: @ketab_n

-٥٩-

جلستُ على سَرير نعيم بالضبط كما يجلسُ هو، واتّكأتُ على الحائط رافعة رجلي- تكادُ ركبتاي تلامِسان صدري- لأستند عليها، فاتحة الكتاب أمام وجهي.

نعيم يعيشُ على سريره؛ ينام ويأكل ويقرأ ويكتب عليه، عندما يأتيه ضيفان يَحتفي بهما فوقه، وكأنّ غرفته حُدّدت بالسرير، ولم يعُد لهم أيّ مكان غيره، وهو على الأقل يَقضي ليلتين خارج البيت، لا أعرف إلى أين يذهب. لديه أصدقاء أفغانيين وإيراني جمعتهما صداقة، هل كان يبيتُ في منازلهم؟ لا أعرف. ولم أسأله في يوم، فمعلومات أكثر تعني مَصائب أكثر. ماذا لو قال لي أنّه يقضي ليلتهُ في محطة المترو؟ هل سأتمكّنُ من قول: هنيئاً لك؟ إذن، السكوت من صالحي. وإن كنت في هذه الفترة الأخيرة أفكر في لياليه.

وبعيداً عن اعتيادي على الوحدة، كنتُ بحاجة إليه. كنت أتنفس معه وأعيش أيضاً. أصبحَ لي مثل الهواء، وغيابُه يجعلُني أختنق. ولاحظَ نعيم هذا الأمر بسرعة، وقال لي يوماً بلا مقدمات:

"لكم الحق في الانزعاج مني، عرفت أنكم تعبتم مني كثيراً، وإن لم أفهم جيداً الأمر لأنني كنت في أفغانستان مشغولاً تماماً، وهذا ما رافقنا في الخارج، رغم ذلك عندما أراكم في غمكم، أشعر أن العيش معي صعب".

شعوران أبلغ تأثيراً من العفو، الأول من يقف أمامي يفهمني جيداً، والثاني يصارحني به.

Twitter: @ketab_n

-٦٠-

خرجتُ من الغرفة قبل نعيم بدقائق. بوجا وقفت أمام المصعد، ارتدت في ذلك اليوم ساري وردياً، طرّزت أطرافه بلون فضي، تحيطه نقوش شجرية، تركت شعرها الكثيف بلا شدّ لتظهر أطول ممّا هي، وجمعته إلى الجانب الأيسر من وجهها. وفي كل دقيقة تمرر يدها على طول شعرها.

قد لا يكون هذا التمرير اليدوي من أجل الغنج، بل أرادت إظهار طاقم الذهب الذي وصل لها للتو من بومبي.

بوجا لها ميل خاص للحلي، يصلُ لأن تزين حاجبيها وأنفها وشفتيها بأشياء لامعة. وعندما تهتز يصدر صوت من كل عضو من أعضاء جسدها، خذ من "الجريك جريك"، حتى "دلنق دلنق"، و"تلق تلق"، ركبت الأصوات الصادرة من يديها كل بلحنه، فهي تربطُ في كل رجل ثلاثة خلاخيل، وأثناء خطوها تضرب رجلها بشدة على الأرض، كلما رأيتها تسير مسرعة، أتذكر قرى إيران ساعة الغروب، عندما تعود قطعان الأبقار والخراف من التلال.

أعرف أن بوجا لا تقوم بحركة اليد هذه بلا سبب، بالطبع أن كل هذه الجلاجل في كل يد، تكسوها جمالاً، حتى اليد السوداء الصدئة التي تملكها بوجا.

ينزاحُ الساري عن كتف بوجا مع كلّ حركة، ساقطاً عن كتفها الأيمن، أو عن صَدرها، فتُعيده بوجا بغنج، وقبل إعادته لمكانه، تمسكه بطرف أصابعها، ثم تفتحُ يَديها ١٨٠ درجة حتى يحصلَ المُشاهد على فرصة رؤية ما يحتاج إليه.

Twitter: @ketab_n

وإن كان وجهُ بوجا قبيحاً، لكنها كانت جميلة القوام، كتفان لاحمان وثديان ممتلئان أكثر من اللازم حتى ليظنّ الإنسان أنهما سوف يخرجان من حلقومها، لكن مع الأسف أن هذا الجمال والبياض توقّف إلى هنا، ولم يتعد إلى أماكن أخرى، وإلا لضمنت بوجا مستقبلاً زاهراً وهي أمنية كلّ هندي في أن يصبح فناناً.

Twitter: @ketab_n

انقطعَ خط الهاتف، وبكل بساطةٍ أغلقت سماعة الهاتف، بضع خطوات هي التي أبعَدتني عنهُ وعاودَ الرنين، عُدت بسرعة ورفعت السماعة، حاولت أن يكون صَوتي طبيعياً، ولكن لم يكن كذلك، وبإمكان أي أحمق معرفة ذلك.

نعيم تحول عائقاً بتسمره وسط الغرفة، يُتابعني وأنا أخلق له مشهداً، خفقان قلبي أسمعه، وضغط الدم سدّ أذني. سال العرق، وانقطعت أنفاسي. ولم لا أعرف هذا التحول الطارئ في صوتي الذي بات يشبهُ صوت ولدٍ وصل للتو مرحلة البلوغ.

"هل أنت بخير؟"

"نعم، بخير".

"هل أنت مزكومة؟"

"لا".

"أتمنّى أن يكون هذا عذراً على اتصالي المفاجئ".

لم أعطِ نعبد الحميد مَكان أمل لخطوة، قلت له:

"بالتأكيد هُناك أمر طارئ لتتصل".

أردتُ إفهامه أنّ الاتصال بي لا يكونُ إلا إذا كان هناك أمر مهم، وأوحى لي أن الأمر كذلك. الطفل يظن أن التحدث بصوت عالٍ وبحماس سوف يحسم الأمر له، وإن كنت غبية ولكن ليس إلى هذه الدرجة.

Twitter: @ketab_n

"لم أقدر في العمل مُفاتحتك في الأمر، قبل أسابيع فقدت بعض السلع، منها خمسة أكفان أحضرها لي قبل مدّة وجيزة صديقٌ لي من اليمن".

يا إلهي! وما الذي سيُفعَل بالكفن، ولماذا تُسرَق؟ من ناحيتي أعرف أنها لن تُفيدني، أي أتمنى أن لا أحتاجها في القريب، وحتى لو احتجتها وذلك في المستقبل البعيد البعيد، سيكفيني كفنٌ واحد فقط، بينما ستبقى الأكفان الأربعة الأخرى بلا جدوى، فضلاً عن أنها من النوع اليماني، ولا يمكنُ لفها بورق الهدايا لتقدم في أعياد الميلاد كهدية.

"من ناحيتي لا أعرف أين هي".

"طبعاً أنتِ لا تدرين عنها شيئاً، أرجو ألا أكونَ أوقعتك في سوء فهم، أنا أَعرفُ أنه ليس من فعلك".

يظن عبد الحميد أن إبعاد السرقة عني سيسعدني، ولكنني كدت أتقيأ من طرحه لهذا الموضوع.

"قبل أسبوع فُقِد كارتونان من القطن، وفي ذلك الأسبوع فقد أيضاً.."

كنتُ أحسب الثواني لأقطع الاتصال، ولكن زميلي في العمل كان يقدّم تقريراً مُفصّلاً عن هموم أشهر أو أعوام جرَت له في العمل، قال أخيراً:

"أرجو أن تحضري غداً عند الساعة السابعة صباحاً، المحقق بانشونيه سيقوم ببعض الإجراءات وأصرّ على حضور الجميع، كل الموظفين".

Twitter: @ketab_n

-٦٢-

"بسرعة تعالوا.."

"هل حدث مكروه؟ أين أنت الآن؟ من أين تتصل؟"

"قلت لكم أمام البيمارستان".

"هل حدث مكروه؟"

"ياه، نعم، هُناك مكروه حدث اليوم، صديقتكم الأفريقية تلد".

طوال إقامتي في فرنسا هذه هي المرة الثالثة التي أستقل فيها التاكسي. الأجرة مُرتفعة، فأستقل الميترو دائماً، واستقلُّ أحياناً الباصات. ولكن في الحقيقة، هناك سَعادة لا تقاومُ تغمر الإنسان وهو يستقل التاكسي. شعرتُ وكأني أستقل السيارة لأول مرّة في عمري. ومع ذلك، وبشهادة أمي التي لا تكذب إلا في مواقع استثنائية، ذكرت لي أنني ولدت في السيارة.

نعيم ينتظرني أمام المستشفى، أمام باب زجاجي كبير يفتح احتراماً للقادم قبل الوصول إليه بقدمين. للحظةٍ حزنت من أجله، ففي الأيام الأخيرة فقد الكثير من وزنه، وكلما فقد وزناً أكثر، يُخيّل إلي أنهُ يزداد طولاً. مؤكد أن طوله سيصل إلى مترين بسرعةٍ فائقة، حتى بشرته ازدادَت اصفراراً، ومازال يرتدي ذلك البنطلون والسترة اللتين رأيته بهما أول مرّة، هذه الثياب كانت بمثابة زي إلزامي له. وعندما يشتد البرد يرتدي فوقه معطف مطر، وعندما يشتدُّ الحر لا يتردي المعطف.

Twitter: @ketab_n

-٦٣-

دومينيك خطفَت لب المسيو خوان، وتوني فاته قطارُ الحب، من الممكن أنه لم يجد فرصة ليحب، فقد ذهب وهو في سن السابعة عشر للمشاركة في الحرب، والآن هو في سن الخامسة والخمسين يقضي ما تبقى له من عمر في فرنسا، لماذا فرنسا بالتحديد؟

"وما الفرق؟ بالنسبة لي كلّ الأمكنة واحدة، قبل فرنسا كنت في تايلند، وقبل تايلند كنت في الهند. عشتُ فترة في تركيا، وكنت في الباكستان، حتى أنني أردتُ الذهاب إلى أفغانستان لكنهم لم يسمحوا لي".

أضاف ضاحكاً:

"قالوا لي: بذهابك ستعرض نفسك للخطر، أجبتُهم أن ما تبقى لي نصف روح، فلتكن من نصيب الأفغانيين، وما الضرر من ذلك؟ حقيقة! ما رأيك؟"

دائماً، يسأل توني أسئلة يعرفُ إجابتها، أو أنها لا جواب لها في الأساس، على أيّ حال هو لا يُعطي أحداً فرصة الإجابة لأنه يكمل.

"ومن فرنسا سوف أذهبُ إلى دولة أخرى. أذهب إلى كل مكان وأعيش فيه، إلا بلدي، لا أود رؤية أحد من أبناء وطني. البلد الآخر الذي لا أستطيع الذهاب إليه فيتنام. ليس خوفاً منهم، لا، لقد سمعت أن بعض شبابنا استقروا هناك، فكّر في الأمر يا فتى! يعيشون في مكان كانوا يَقتلون فيه ويُقتلون. الفيتناميون تقبلوهم، بل وأعطوهم نساء، قبلوهم كأفراد، ولكني لا أستطيع الذهاب

Twitter: @ketab_n

هناك، لا أستطيعُ أن أكون أمريكياً أو فتنامياً، أنا أكثر ارتياحاً في الدول الشّرقية. لو استطعت الذهاب إلى إيران لن أتردّد، سآتي معك، نعيش هناك".

فجأة تجسّد لي وجه أمي، لو استطاع توني الذهاب إلى إيران كم سيكون وجهه لافتاً في المطار.

استولى علي الفرح من أن توني يحبُّ العيش في إيران، مفضلها على سائر بلاد الله، فسألته:

"ولما إيران؟"

"لأني لم أجد شعباً يكرهُ الأمريكيين مثل شعبك. ولأني أستطيع العيش أفضل وسط الحقد. فكّري في الأمر؛ لو علِم أبناء بلدك أني شاركت في حرب فيتنام، لقطعوني في المطار إلى قطع".

واهتز جسده مثل مادة هلامية وهو يقهقه.

"ولكن.. ولكن جئتُ هنا من أجل إغضاب الفرنسيين، لأنهم أولاد قحبة. هذه الوساخة ليس لديهم مؤخرات حتى يُدافعوا عن بلادهم، كلما هُجموا، قدّموا بلادهم بكلتا يديهم للمُهاجمين، مُغلقين أبواب بيوتهم، مُنتظرين المساكين من أمثالي ليخرِجوا الغزاة".

لا أستمعُ لتوني إلا و أنا جالسة. هُناك مقدمة تدعو دائماً للمتابعة، وهناك في كل مرّة جديد يقدّمه لي عن بلاد أخرى، وشعوب وناس، ومناطق، بيد أن حديثه لا يبقى منه إلا الحقد والعداوة، ليصل الأمر معي إلى الحيرة في التعامل معه، كيف أذهب لعملي أو لصفي؟ بل كيف أكمل حياتي؟

Twitter: @ketab_n

بوجا لم تُصبح لينة معي بعد. أتلقاها بابتسامة عريضة مرحّبة بطلّتها، وأسرفُ في مدح طلعتها أو ثوبها، وإن كانت لا تدعُني أتمادى. وحينما أرى شغفَ الانتظار في نظرتها، يتصاعد عندي الخبث، مهما أردت إقناع نفسي بإكمال ما أنا فيه. مثل ذلك اليوم، كانت بوجا تشعُّ جمالاً، ولكن للأسف لم يكن الأمر مرتبطاً بثيابها وحليها فقط، هناك شيء في داخلها تغير، أصبحت أكثر أنوثة، وجهها، حركاتها، ولم أكُن في حالة تمكنني الاعتراف بهذا التغير المفاجئ.

هززتُ رأسي محية إياها، ووقفتُ ساكنة أحدق في عينيها، موحية من سوء حظها أنني لا أرى ساريها الجميل ولا حليها ولا كل التغيير الذي أصابها. بقيت ساكنة حتى بدأت هي بالكلام:

"كم الطقس جميل، أليس كذلك؟"

هذه الجملة التي يرددها الناس من كل فج وبكل لغة قاصدين بها اللامعنى واللاشيء. إنها كسر للسكوت وبدأ للحديث. رغم ذلك بقيت في صمتي. ثم قدّمت لها ابتسامة خفيفة.

إذا لم أستطِع صعقها، فإبمكاني الصمت، ولو متشحاً بالتفاهة. صممت على فعل الصمت، وما هي إلا لحظات لأدخله.

Twitter: @ketab_n

-٦٥-

كلّما رآني نعيم، مدّ لي يده، حتى لو افترقنا قبل ساعة. هذه العادة لا تفارقه. يمد اليد للتحية مثل القرويين عندنا، كلما دخلوا مكاناً، رددوا السلام عليكم مرّات عديدة. صدمتُه ببغضي لهذه العادة، وسحبتُ يدي، ولكن لا فائدة. يوافقني على وجوب تركها، ويُجارينى في الضحك على عادته، لكنه يعود لها. تفصلني عنه خطوات، وإذا بيده تمتد لي، وفي كل مرّة أغافل بظرافة يده، وأخاف من الضغط عليها لكي لا تصاب بصدمة.

ضحكته لا تفارقه أبداً حتى عند بكائه. وإن كنت لم أرَ بكاءه لكني اعتدت ضحكته. إنه يضحك على نحوٍ يوحي أنه سمع للتو خَبراً مفرحاً. لم تكن شفتاه تضحكان فقط، بل كل وجهِه وأكثرُ ما يضحك فيه عيناه، حتى تغيبان كلياً ويبقى منهما خطان مُمتدان، لكنه لا يصدر صوتاً، فضحكته بلا صوت، بعكسي أنا، فضحكاتي هي أصوات لا غير.

كلّ هذا الشعور المتناقض الذي أحمله لنعيم، ومازلت متفاجئةً بمصادفته في الشارع، فحُضوره في البيت مُختلف، وأنا اعتدتُ عليه، ولكن في الخارج رؤية ذلك الوجه المنهك يفاجئني ويُحزنني، ولذلك أتهرّب الآن من النظر إليه. أنظرُ في كل الاتجاهات حيث لا يكون.

Twitter: @ketab_n

تتجلّى عظمة عبد الحميد وطاقاته حين يعزم على السير من طرف مكان غسل الموتى إلى الطرف الآخر ليُرتّب الأمور. وحين أكون هشة الداخل والخارج، يأتي هو بكل هيبته. وما أن ينتهي العمل ونغادر، نعود إلى أنفسنا ونصبح مثل بقية البشر، بل أقل من البقية لأننا غاسلو مَوتى. وبما أني غاسلة موتى تحت التمرين، أو غاسلة موتى مؤقتة، فأشعر بأني أفضل منه.

أحياناً نغادر سوياً بعد انتهاء العمل. عبد الحميد أنيق جداً، وعطره لا يفارقه وهو لبق أيضاً. مجاورة مثل هذا الرجل إن لم تكن جالبة للفخر فهي غير مُحرِجة، رغم ذلك أعدّ الثواني ليتركني وحيدة، مثلما أنا.

لا طريقَ يربط الفرنسيين بمقبرة المسلمين، ولا أحد يعرفُني منهم، لكن عبد الحميد وكمدير للمقبرة عليه إدارة الأمور، وهو أن يزور البلدية على الأقل مرتين في الأسبوع، وزيارة البريد وكل الإدارات الحكومية المرتبطة بعمله، خاصة التأمين، لأن أكثر مُراجعينا لديهم تأمينات. وعادةً ما يأتي موظفو التأمين سائلينا ملء الاستمارات.

لم يخرج عبد الحميد من المقبرة بعد، رفعتُ يدي له، وابتعدتُ عنه مسرعة دائماً، أنا على عجلة لألحق الباص أو المترو للوصول لموعد مهم، متغاضية عن الدعوات المتكررة لزميلي ورفقته بسيارته البيجو أحدث موديل.

أفرغ أحياناً غضبي من العمل على رأسه، منفسة عن نفسي بذم عمله أو مراجعيه على حدّ قوله، ثم أنفجر ضاحكة.

زميلي، وإن كان يتجاوب أحياناً مع مزاحي الذي يمسه، ولكنه ينتفض

Twitter: @ketab_n

غضباً حين يتعلّق الأمر بمراجعيه، ولا يُشاركني الضحك أبداً، و يراقب الكلمات لكي لا تجرحهم. وغالباً ما يتحدّث عنهم باحترام واصفاً إياهم بالسيد والسيدة، يقول مثلاً: "السيدة التي أحضروها أمس.."، أو "أحدُ السادة الذين أحضروهم من المستشفى قبل أسبوع..". تَحوّلُ الميت إلى سيدة وسيد يثيرني، أقول له: "إن الميت لم يعُد سيد، ولا سيدة، بل ميت فقط". رفضه الصامت ينتزع التقدّم مني.

ورغم جزعي من الحديث فيما يرتبط مباشرة أو بصورة غير مباشرة بالموتى وغسلهم، يدور حديثنا أنا وعبد الحميد في أغلب الأوقات عن الموتى الذين غسلناهم في ذلك اليوم، والموتى الذين غسلناهم حتى ذلك اليوم، والموتى الذين سوف نغسلهم غداً، والموتى الذين سنبدأ بهم من الغد.

Twitter: @ketab_n

-٦٧-

لم أكُن في حالة تسمحُ لي برؤية الرجل الأفريقي، خاصّة الآن. أود لو أقدر إخراج عينيه بأظافري. كنتُ قد سمعت وقرأت أنهم يختنون النساء، ولكنبي لم أسمع أبداً أنهم بعد كل ولادة يُجبرون المرأة على إعادة غشاء البكارة حتى يعود الرجل إلى زوجة مازالت عذراء. لم أكُن أعرف، والآن بعد أن عرفت، لم يعُد باستطاعتي السير كما كنت في السابق.

تمر ثلاثة أيام على تألم حنا، ولم أفهم سبب بلبلتهم وتأخرهم بأخذها للمستشفى. ظننتُ أن السبب ضائقة مالية، ولكن لديهم تأمين جامعي، فضلاً عن ذلك هُناك ألف طريقة لحلّ هذه الأزمة، بل حتى باستطاعتهم أخذ مساعدة من المؤسسات الخيرية، وقد كان لديهم وقت تسعة أشهر للتفكير بالأمر، والآن لا أفهم سبب هذه الاتصالات، الاتصالات ذاتها التي تقوم بها حنا المسكينة وهي تتلوى ألماً. عرفتُ أن المشكلة لا تتعلق بالمال، هناك قضية أهم من المال. الحقيقة أنّ حياة حنا في خطر، لا أعرفُ إلى أي درجة ارتفعت حرارتي، لكني أشعرُ بغليانها يتصاعدُ إلى رأسي.

الرجل الأفريقي سَعيد، لأنّهُ لم يستطع قلب قسم من المستشفى رأساً على عَقب. إنّهُ يتحدّثُ بصورة عالية خالطاً كلماته بضحكاته، عندما يرى المُمرضات والأطباء يتراكضون حزينين مغمومين يهز رأسه تأسفاً، ويقول:

"لا أفهم، حقيقة لا أفهم، كيف يصفون أنفسهم بالأطباء؟ ما أملكه أكثر بكثير مما هم عليه".

ضارباً أمثلة كثيرة على جهل الأطباء الفرنسيين، عارضاً قدرات قابلات قراهم وحكمائها، مؤيداً حديثه بهزّة من رأسه. ونعيم يدفعه للمضي في المديح:

Twitter: @ketab_n

"ماذا تقصد ماذا يفعلون؟"

"عليك أن تأتي وترى. حكماؤنا يقومون بالمعجزات. نعم، معجزات. يبصر العميان، يتكلم الخرسان، ما يقومون به يجعل من الأعرج الفائز في مسابقات الجري، بل يستطيعون بورقة شجر أن يحيوا من يلفظ أنفاسه الأخيرة ليقف مع البقية. أنا بأم عيني شاهدتُ ذلك، لا ليس مرّة بل آلاف المرات، لا غبار على ما يقومون به، إنها غير اعتيادية".

Twitter: @ketab_n

-٦٨-

حدثَ هذا الأمر في الفترة الأخيرة. استيقظ صاحب نزلنا العزيز صباح أحد الأيام، ولاحظ ظهور يد ثالثة عنده. أعطى الله المنان يداً أخرى لخوان من أجل دومينيك، حتى يستطيع أن يضع يداً على كتفها. ومن الممكن أن الله لم يعطه يَداً زائدة، لكنه أوحى له في هذا الصباح أن يكتشف أن هناك يداً إضافية كانت من قبل، أو أنها طفيلية، وتحملها هو كل هذه الأعوام صابراً، حتى وجد دومينيك لتذكره بفلسفة هذه الزائدة.

لا أحب دومينيك ومشكلتي الأساسية معها هي أنها طيبة أكثر من اللازم، ولبقة أكثر من اللازم، وربة بيت أكثر من اللازم، وتظهر حباً لمسيو خوان أكثر من اللازم و.. كلما توددت لها، صعب تصديقها.

ما تبالغ به دومينيك هو الضحك، تضحك برأسها وصوتها.

ضحكات خاوية، لا تستمتع هي بها، ولا من يسمع ضحكاتها. تضحك على أخبار التلفزيون وعلى البرامج الكوميدية، ولا فرق إن كان الموضوع بصدد التاريخ أو الأدب أو علم النفس أو كاريكاتور، فإنها تبتهج بأيِّ حوار يتناول أي موضوع، وتبالغ في إظهار بهجتها.

Twitter: @ketab_n

-٦٩-

اشتد الصمت بيني وبين بوجا، بينما كان نعيم يقتربُ منها بعد إقفاله باب النزل بخطواته الكبيرة تاركاً فاصلة صوتية بين كلّ خطوة، حتى يخيل للسامع أنه انصرف لأمر آخر، لكنه وصلنا بذلك الهدوء والوقار الأزلي.

نعيم، وكما يفعل دائماً، يبدأ تحيته بقهقهة صغيرة، مُظهراً أسنانه ناصعة البياض، ثم مدّ يده لبوجا وهو يُحييها بحرارة، وكأنه لم يرها منذ أعوام، وكان ينتظر هذه اللحظة ليقدّم احتراماته، وهذه من الصفات التي لم أكُن أحبها في نعيم، فهو يصبح حَميمياً بسرعة مع الناس.

"وُه دِن جُوايكِ خوب صورت لَري ديكني سي شروع هويي تو بِهُت اجّادَن هُوا هِي"

هذا أيضاً ما أكرهه فيه، ما أن يرى بوجا حتى يتحدّث معها باللغة الهندية، من أين تعلم نعيم اللغة الهندية؟ تعلمها بالتأكد في المكان الذي تعلم فيه اللغة الفرنسية. لا أعرف، لم أسأله يوماً، ولا أود الاستفسار منه، وأمام كل الشوق الذي أظهرته بوجا أن يكون هناك من يتحدّثُ معها باللغة الهندية، كنت أنا جبلاً ثلجياً.

على أيّ حال، لم يَعودا منذ ذلك اليوم يتكلمان باللغة الهندية، أو أيّ لغة أخرى، ولكن ما الذي تحمله نظراتهما؟ لا أعرف، ما أعرفه هو تحول وجه الفتاة إلى أبيض يشبهُ بياض جسدها، ومهما حاولت إخفاء اهتزاز صوتها لم تفلح.

بوجا أطول مني، ونعيم أطول منها، وقد وقف نعيم وبوجا مقابل بعضهما، وأنا كنت في الوسط.

وإن كنت لا أستطيع رؤية ما في الأعلى، فلم أكن محرومة من رؤية ما في الأسفل، وكنت منسية مثل قطعة الساري التي نسيت على الأرض.

Twitter: @ketab_n

-٧٠-

أحضرني الطبيب مرة أخرى إلى مكتبه، وهو متعب، طالباً مني مرة أخرى معلومات أكثر:

"رجاءً، قولي لي ما الأمر بالتحديد؟"

"لا أعرف الكثير، سوى.."

"اسمحي لي لنعود مرة أخرى من البداية".

فتحت جفني بصعوبة، والطبيب غير آبهٍ بي، حتى نعيم لا يأبه بحالي. الطبيب يتوقع أن أعطيه تفاصيل أكثر، لكنني لا أملك أكثر مما قلته، لكنه لا يريد تقبل الأمر. وقد يكون مقتنعاً من أني لا أملك أيّ تفاصيل أخرى، ولكن ليس أمامه حل آخر، ويصر على أن أصغر معلومة قد تكون مفيدة له.

"مرّت علي حالتا ولادة، كانت المرأتان فيها مختونتين، وهُما من أفريقيا، وتعاملتُ مع مثل هذه الحالات، ولكني لم أواجه إلى الآن مثل هذه الحالة".

أضاف مرتبكاً:

"سمعتُ ورأيت أن ختان النساء يعني استئصال جلدة العضو الأنثوي، ولكن ما حدثَ لهذه السيدة موحش، استُئصِل تقريباً كل عضوها فضلاً عن.."

وقف، وأخذ يمشي في الغرفة، وقال:

"لا تقبلُ إجراء العملية. هل تعرفين السبب؟"

Twitter: @ketab_n

هززت رأسي مشيرة للدلالة على حيرتي:

"لأنهم يريدون أن يحصلوا على طفل آخر بلا فاصلة، واحد، اثنان، قد أكثر، ويظنون أن العملية ستقفُ أمام الإنجاب، وزوجها أكثر حماقة منها، يقول لي كلما أسرعت، كان أفضل، هل تصدقين ذلك؟"

كأنه نسي للحظة، نسي نفسه، وعاد ليلملم نفسه مرة أخرى، أخذ نفساً عميقاً، وقف خلف مكتبه وهو يخطو بوقار الأطباء، وقال لي بلهجةٍ كأنها تخرج من فم شخص آخر:

"هل تعرفين عمر أصغر طفل لديهم؟"

"عامان".

"أين ولد؟"

"لا أعرف، ما أعرفهُ هو أنهم كانوا يعيشون في تلك الفترة في بريطانيا".

"هل يعني هذا أن ما هو أمامي من فعلِ الأطباء البريطانيين؟ غيرُ ممكن، من الممكن أنهم عادوا لبلدهم من أجل الولادة، وهذا أمر لا يقبله العقل، ما هي صِلتك بهذه العائلة؟"

Twitter: @ketab_n

-٧١-

جلسَ توني على سريره، وجلستُ أنا أمامه على الكنبة الوحيدة في غرفته، كان الجو حاراً، ولا فائدة من فتح النافذة أو إغلاقها. من مروا بتجربة السكن في الغرفة الواقعة تحت سقف محدّب من الحديد يعرفون جيداً شدة حرّ هذه الغرف، مقارنة بالغرفة العادية. حتى درجة حرارتها مختلفة، خاصة في نوعيتها، لأنه ليس فيها إلا نافذة واحدة، والهواءُ فيها مذيب للبشر، والشمس تلاحق ساكني الغرفة في أخفى زاوية. كنت دائما ألعب في التنقل في الزوايا، أجبرُ أحياناً على الجلوس خلف الباب الذي يفصلُ بيني وبين نعيم، لأنه قلما ما تنفذ إليه الشمس.

نزع توني صِدار الصوف، وبقي بقطعة قماش تغطي ما يسمى بالجزء السّفلي، قال ضاحكاً:

"لدلائلَ لا تخفى عنكِ سترتُ هذه المنطقة فقط"

وكما يفعل دائماً، غمز بعينه. عندما يغضب صديقي هذا، فإنه يقوم بأمرين أحدهما السباب والثاني البصاق.

بصقات كبيرة وترمى عادة إلى الجهة التي يسكن فيها مستلموها. مثلاً إذا كان الشخص الذي يود توجيه البصاق عليه في شمال باريس، فإن البصقة ترمى تلك الناحية. وإذا كان يسكن شمال البلاد، لن يتغير الاتجاه أيضاً. وحتى لو كان من يريد قذفه ببصقة مُقيماً في الدول التي تقع شمال فرنسا، مثل الدول الإسكندفانية، فإنه لن يغير جهة القذف. وعلى ذلك تذهب إلى الجنوب، إذا كان المستلم يعيش في الجنوب،

Twitter: @ketab_n

أقصد جنوب باريس، أو البلدان الجنوبية. أحياناً تذهب هذه البصقة المصغرة عابرة البحار والصحارى، غاطسة في أعماق الغابات الإفريقية حتى تصل لمستلمها الذي يقضي أيامه في كوخ مَعزول. من حُسن حظي أن جاري يقطن الطابق الأعلى، وليس هُناك أحد يسكن فوق شقته، إذ لأصبح البصاق حكاية تروى لأجيال.

وبما أن موضوع دومينيك طرِح، أدار توني رأسه ناحية النافذة التي تفتح على ساحة النزل وأرسل بصقة كبيرة.

"الشمطاء! وصل الأمر بها أن تهددني".

توني يأخذ أي كلمة تصدر عن دومينيك كتهديد، ويتعامل مع البقية هكذا. كثيراً ما يظن أنهم يشكلون تهديداً له، يشعر بالخطر منهم ولذلك يعود لهم بإشارات.

"سوف ترين، سوف أريها".

ليري توني دومينيك هناك طريق واحد فقط، وهو التحايل على مسيو خوان، والظاهر أنه لا يعول كثيراً على صداقته مع المسيو خوان.

صحيح، أن كلاهما كان جندياً وشاركا في القتال، ولكن مسيو خوان شيوعي مُتعصّب لشيوعيته، وتوني أصيب بهذا البلاء في حرب الفيتنام، ليس لدي أقل شك أنهما لو التقيا في شبابهما لأصبحا من ألدّ الأعداء. لكنهما الآن في سن واحدة، وتعلما كيف يحترمان بعضهما كجنديين سابقين.

تقول دومينيك بأنها تعرف كيف تتعامل مع توني، وتوني يقول بأنه سيجبرها على الفرار، واضعاً يديه الضخمتين على صدره، مُصدراً صوتاً تحقيرياً، ما ينقصه ليتحول إلى دومينيك هو رجلان.

Twitter: @ketab_n

-٧٢-

جلس الإفريقي وسط الصالة، يخطبُ بصوت عالٍ برجال من العرب والسود يشبهونه.

حذرتهم الممرضة مرّات، من أن هذا المكان مشفى، وعليهم السكوت. تحرّكت شعيرات شقراء قابلة للعد، وقالت لهم:

"Vous n'a vez pas le droit de faire ليس لكم الحق بما تفعلون"

المرأة المسكينة أشد حماقة مني، ما الذي كانت تتخيله؟ هناك من يحترم حقوق الآخرين في هذا الحشد المجتمع؟ في الساعة الخامسة صباحاً، أرسلوا أحداً ليناديني مرّة أخرى، هذه المرة ليس الطبيب لأنه يأس مني، إنما حنا التي تريدُ رؤيتي. فكانوا يحضّرونها للعملية. وجهها الأسود كاد أن يبيض من شدة الألم، وكان صوتها يأتي من أعماق بئر:

"أرجوكِ قولي للطبيب، قولي له هذه عادتنا، دائماً ما تقوم النساء الإفريقيات بهذا الأمر بعد كلّ ولادة".

طالبة مني أن أقنعَ الطبيب بإعادتها فتاة.

"هكذا أفضل، لرجالنا، لحياتنا.. أنت تعرفين ذلك جيداً؟"

طبعا أعرف. مشكلتي الأساسية هي الفهم. وعدتُ حنا بالحديث مع الطبيب. أخذوها لغرفة العمليات، ومن دون أن أنظر خلفي قصدت باب الخروج الاضطراري مصممة على نزول الدرج. بعد لحظات كنت في الخارج، كنت الوحيدة التي تمشي في شارع السان جرمان المبلل بالمطر،

Twitter: @ketab_n

بين حين وآخر يرتفعُ نباح مخنوق من خلف جدران المنازل المرتفعة، فلا مترو في هذه الساعة ولا تاكسي، وسأعود للبيت سيراً على الأقدام.

مرت بجانبي سيارة الشرطة، نظر لي السائق بالمرآة الجانبية، رفعت يداً له موحية أن كل شيء على مايرام، وفي الحقيقة كنت على مايرام، نعم كل شيء على مايرام.

Twitter: @ketab_n

-٧٣-

كانت المتوفاة مراكشية، وغاسلتها كانت سودانية، ومن يساعدها في الغسل إيرانية.

ثلاثة انتماءات مُختلفة، وما يجمعنا ثلاثتنا هو أننا مسلمات. غاسلة الموتى اسمها ليلى، حجمُها أكبر مني ثلاث مرات، وقبل البدأ في العمل وضعت يدها على وسطها ناظرة بتمعن للمشهد، رفعت حاجبيها، حركت رأسها على الجانبين، دمدمت بجمل قد تكون أدعية. على أي حال، عندما توجه الحديث للميت فإنها تحدثه بالعربية، وعندما توجه كلام لي أو لشخص آخر تتحدث معه بالفرنسية. تتعاملُ مع الأمر بسرعة تفقدني توازني، ولم ألمحها ولو مرة واحدة كانت قد أخطأت فيها، ولم أسألها في يوم عن سبب استخدام هذه اللغة مع الموتى. ولكن من المحتمل أن السبب هو أن اللغة العربية هي لغة منكر ونكير، وهي اللغة الوحيدة التي يتحدث بها في ذلك العالم. نعيت حظي العاثر على جهلي بلغة ذلك العالم.

طوال المدّة التي تقضيها ليلى في غسل الجثة، أقفُ مبهوتة محدقة في جسد الميت. لم أعتَد بعدُ على هذا المشهد. كنت أقف بصورة حاجبة نفسي خلف هيكل ليلى الضخم، لأنني أتخيل في أي لحظة يفتح الميت عينيه، أرجح في مثل هذا الموقف ألا أكون في مرمى عينيه، أو على الأقل ألا أكون أول من تصادفه.

لم تصل يدُ ليلى بعد إلى جسد الميتة، حتى أصدرت الجثة صوتاً، لأن الغاسل أول ما يقوم به هو ترتيب جثة الميت. إذا كانت رجلاه متقلصة،

Twitter: @ketab_n

أو يداه على صدره، تجلس ليلى بكلّ ثقلها على الميت ثم تقوم بإرجاع العضو المعوج إلى مكانه الصحيح.

بعد تصحيح وضع أعضاء المتوفى، تقوم بفركه بشدّة، مُستخدمة فرشاة كبيرة بيضاء، من الأعلى إلى الأسفل، ومن جانب إلى جانب آخر؛ اليدان والرجلان، الرقبة والرأس، كل بقعة جسدية تفرك جيداً. تقذف جثة الميت من جانب إلى آخر، أحيانا يضرب رأس الميت بالإسمنت أو يكسر عظم منه من شدة قوة ليلى التي لا داعي لها. رغم ذلك، لا أحد يهتم لأمر الميت، المهم هو إصرار أهل المتوفى على غسله جيداً.

تحت الأظافر، بين الأصابع، أو داخل الأذن، ومناطق أكثر حساسية، ولا يصلُ لها بسهولة، والتي تحتاج إلى دقة وراحة بال. وعلى مساعدة غاسلة الموتى التنظيف، لأنها عادة ما تكون أصغر وأكثر تحملاً، وأكثر صبراً- وإن لم أكن أنا كذلك- وللقيام بهذه الأعمال لديّ أدواتي الخاصة، أدوات لا يوجد أفضلُ منها، تشبه أدوات غاسلي الياقات لدينا.

وغالباً ما تذهب ليلى إلى المراجعين لتقدم لهم القهوة، تاركة إياي خلف الجدار الزجاجي. وعلى أي حال، فأنا لا أغيب عن نظرها، إن كانت مشغولة بالحديث، أو مشغولة بقضم الحلويات، فهي تراقب عملي الذي أقوم به بدقة وسواسية.

Twitter: @ketab_n

-٧٤-

مع قدوم نعيم للنزل تغيرت بوجا، في البداية ظننتُ أنها لم تعد تحسب مثل السابق لوجودي حساباً، ولكن ما أن فتحتُ الباب لدخولها منزلي حتى عرفت أني مخطئة، وما انا إلا ذريعة.

بوجا التي أعرفها فتاة مُسنّة، قبيحة، ومُعقّدة، لم تترك هجماتها أحداً حولها. والآن، بحضور نعيم، أصبحَت فتاة رقيقة ولطيفة ترتدي الساري الملون ولا تبدّله بأيّ ثوب آخر، مُتباهية به، وكأن غاندي مُخبأ وسط كل خيط منه، وقد تغير تعاملها مع الجميع، طبعاً، إذا سمح حضور نعيم بالانتباه للبقية.

تأتي إلى غرفتي بحجة رؤيتي، ولكن كأن لا وجود لي، تحييني بتحية مقتضبة، تدخلُ ثم تجلس على سرير نعيم حتى وقت رحيلها. تتقرب من نعيم إلى حد أخجل من البقاء بينهما، ثم أدعي أن لي عمل أقوم به، وأخرج خارج البيت. غير أن لا بوجا ولا نعيم يسألني البقاء. لا أهمية للأمرَ بالنسبة لهما. أشعر أحياناً أن وقع قدمي المتسارعة وأنا خارجة لا يسمعانها. أعود للبيت متأخرة آملة في أن أجد بوجا غادرت، ولكن رغم ذلك أجبر نفسي في مرات عديدة، على أن أقفل عائدة إلى الحديقة، أو إلى موقف السيارات، أو إلى السير في الطوابق الأخرى، بعد أن أتأكد من أنها ما زالت في الداخل. وعندما أعود، يقول لي نعيم بلهجة عادية:

"تأخرتِ".

لا أعرف هل هذه الجملة سؤالية ويجب الإجابة عليها، أو خبرية تعلن

Twitter: @ketab_n

عن قدومي، وعن خلقي لها. فأعود وأنا أكثر سعادة، وأكثر مرحاً، ولدي عالم من الحكايا. وكلما نظرت إلى المدة القصيرة التي شاهدت فيها عجائب لا تحصى، يتجنبني نعيم باحثاً عن قلمه الرصاص سائلاً إياي هل أنا من أخذه.

Twitter: @ketab_n

ضيعت الشوارع والأزقة، ولم أتعب نفسي في تذكرها. دعها تضيع للأبد. تضيع وأضيع معها، وهل هُناك ما هو أفضل من ذلك؟

الشوارع المفضية للشوارع لا حياة فيها. كنت أنا ونسيم الصباح، وصوت خشخشة أوراق الشجر ببعضه. يقطعُ نباح كلب أحياناً هذا الصمت، ويبعده عني عدة شوارع، ثم يظهر رويداً رويداً عمال البلدية بثيابهم البرتقالية ووجوههم البنية، فأغلبهم من العرب، عرب شمال أفريقيا. وهناك صوت جرجرة المكانس على الأرصفة والأسفلت، وصوت الماء الجاري إلى المجاري، وهو أصل الأصوات الصباحية في باريس.

وبعد فترة، يجيء العباد الفرنسيون مرتدين ثياباً رياضية راكضين. تجدهم فرادى أو مثنى. وهناك من أحضروا كلابهم لدفع ما أكل البارحة. رائحة الخبز الطازج والقهوة المعدة للتو ملأت الشوارع والأزقة، وحين استيقظت باريس من غفوتها، كنت في البيت.

ولأني عدت غير آبهة للوقت، فقد وصل الخبر قبلي. ما أن فتحت الباب، رأيت نعيم. ذكّرني بالمثل الذي يقول، اليد أطول من الرجل الذي تكرر علي طوال عمري، فوددت الضحك إلا أني لم أضحك بل لم أظهر أي ردة فعل. وقف نعيم والمسيو خوان مُتلاصقين في ساحة النزل. نعيم يأخذ أنفاساً طويلة من سيجارته، ومسيو خوان يفعل الشيء نفسه بغليونه، وما أن رأياني، أبعدا أعينهم عني. رغم أني لا أعلم ما حدث، إلا أني تفاجأت، وقبل أي شيء تعطل ذهني، ثم انسحب إلى يدي ورجلي ثم كلّ جسدي، فلم أقدِر على تحريك أصبعي، ولم أستطع العودة إلى حالتي الطبيعية

Twitter: @ketab_n

مهما حاولت، لابُدّ أن هذه الحالة ما يقال عنها الصدمة، أن يكون الإنسان متحكماً بكل شيء ولا شيء، ثم بدأ ذهني ينكر ما يجري مثل طفل، ظانة أن ما يجري ما هو إلا مسرحية تعرض من أجلي .

Twitter: @ketab_n

صعب علي تصديق ما جرى. أنا القومية المتشددة أصادق عسكرياً أمريكياً مثل توني، ولكن هذا ما حدث. رويداً رويداً أصبح أقرب وأفضل صديق لي. بالطبع ليسوا قلة من أستطيع الاعتماد عليهم، بيد أن توني يختلف عن البقية، وأشعر إلى جانبه بالطمأنينة أكثر، إذ لا تعبر في ذهني جمل اليجب واللا يجب، وتوني من النوع الذي لا يعتني بما يخالف النظم والقوانين إلى الأعمال غير القانونية، بل يشجع الآخرين على فعلها؛ من السب والضلال والفضائح وحتى الدسائس و.. الخلاصة أن له يد طويلة في سحب الناس والعالم ورميهم بالوحل وهو مرتاح البال، لم يكن مؤمناً ويصرح بأعلى صوته: أيها الناس اعلموا، سوف أتغوط مرّة أخرى على عالمكم. يعرف أنه سيء، ولكن الآخرين أسوء منه، ويقول لي:

"أنت لا تعرفين أبناء القحبة هؤلاء".

ثم يلوي رقبته إلى الأسفل، ويكمل بصوت جهوري:

"أنتِ أذكى مني، تعلمت جيداً، تقرأين دائماً، صحيح. رغم ذلك، أنا أعرف هذه القمامة أفضل منك".

ثم يخفض صوته وكأنه يبوح بسر، ويكمل:

"هل تعرفين أنني رأيت هذه القمامة عارية في ساحات القتال بلا أقنعة تخفي حقيقتهم، رأيتهم وهم يستريحون- على حد تعبيرهم- جالسين إلى جانب جثث النساء والأطفال، ويدخلون في حديث عن أنفسهم وأهاليهم. وفيما إذا لم يكونوا متزوجين،

Twitter: @ketab_n

وليس لهم أطفال، ويدخلون أيديهم في جيوبهم ليخرجوا صور فتياتهم ليعرضوها".

يرجعُ رأسه للخلف، ويغمض نصف إغماضة، ويقول:

"دائماً توجدُ قمامة سوداء تضحكهم بنكت أكثر وساخة منه".

بجانب توني أفضفض عن داناءاتي، وما الفرق؟ سيسامحني عليها كلها، كلما كانت أكبر، كبُر عفوه.

أقارن نعيم به. جاري في البيت كان عصامياً إلى أقصى حد. طيب جداً، ورؤوف جداً، وطيبته هذه جالبة للمشاكل، وتصعّب أمور الآخرين إلى درجة الاختناق، وكأنك تربط وتجبر على أن تكون طيبا دائماً. تفكر جيداً، تتكلم جيداً، تتعامل جيداً..

ولكن، عند توني، الدنائة أصل الطيبة، بل هي الطيبة عينها، والطيب من البشر لا يحسبه بخصيتيه على حدّ تعبيره بنصفَي الخصيتين هاتَين.

"ظن أن النصف الآخر بقيَ على الدبابة، لو عرفتُ ذلك حينها لأرسلتُ فريق تجسس خلفها".

Twitter: @ketab_n

-٧٧-

"نعيم ليس إيرانياً، بل يعرف اللغة الإيرانية".

"يعرف الإيرانية فقط؟"

"نعم، كما يعرف الفرنسية أيضاً".

الفتاة الهندية، ومثل أغلب الأجانب، لا يعرفون أن لغة الإيرانيين هي الفارسية، ويتخيلون بما أن الهنود يتحدثون الهندية، والإنجليز الإنجليزية، والفرنسيون الفرنسية، فالإيرانيون يستخدمون لغة تسمى الإيرانية، ولم أكن في مزاجٍ يسمح لي بالتوضيح، ومجادلتها دفعتني إلى أخذ الأمور بجدية أكبر مما تستحق.

"نعيم لا يعرف الإيرانية مثلما يعرف الإنجليزية والفرنسية، نعيم إيراني واللغة الإيرانية لغته الأم".

أنا وبوجا نركض خلف أصل نعيم ونسبه وقوميته، في الوقت الذي هو جالس، غير آبهٍ بنا، في زاوية، وهو منشغل بفصل أسلاك كهربائية تداخلت مثل الأفاعي ببعضها، وكل سلك موصول بجهاز.

"لكن نعيم أفغاني، وجاء من أفغانستان".

لا أعرف ما الذي تعرفهُ بوجا هذه عن كونِ الإنسان من إيران أو أفغانستان، ولكني أعرفُ ما ترمي إليه. لا تريد أن نكون أنا ونعيم من قومية واحدة، بينما هي من قومية أخرى.

Twitter: @ketab_n

"حسناً، هو أفغاني. ولكن أفغانستان وإيران تقريباً بلد واحد. أفغانستان في القديم كانت جزءاً من إيران".

"نعم، صحيح. ولكن هذا يتعلق بالزمن القديم، أفغانستان الآن دولة مستقلة".

"ولكن نحن نتكلم لغة واحدة، لنا مذهب واحد، عاداتنا واحدة. إذن، في الواقع نحن من وطن واحد، وإن كنا إيرانيين أو أفغاناً لا يشكل فرقاً".

كانت حُججي قوية بشكلٍ لا تقبل التشكيك فيها، رغم ذلك بوجا لا تقبلها. ولن يتغير الواقع بإصرارها الذي لا طائل منه. وإن لا إيرانية نعيم لن تغيره إلى هندي، والطريقة التي تسيّر بها بوجا الحوار بها تدل على أنها تريد إدخاله في هذا المعنى.

Twitter: @ketab_n

-٧٨-

ماتت حنا، ولم يتغير نمط حياة هذه العائلة. وبدلاً من إشباع ستّة أفواه، أصبحت سبعة أفواه تتنازع فيما بينها. يعيشون حياتهم كما هي بعد فقدهم أمهم، لم يتغير روتينهم؛ المدرسة والأكل وأوقات الفراغ. لم ينطقوا كلمة عن أمهم، ولم يتطرقوا لرحيلها. لكنهم بالغوا في استقبال الضيف الجديد، وفرحوا به. فتاة صغيرة سمينة تضحك لأيّ همسة، وفتيات العائلة الصغار منهن والكبار يقمن بدور الأم، والأولاد بدور الأب.

خطوات واسعة بوسع خطوات النعام، ومشية تشبه مشي الجمل بتلك النعل البراقة نفسها- ولن تكون براقة مثلما كانت في حياة حنا- يتجول بين الغرف بلا هدف. الهاتف يرن بلا توقف، أحياناً هناك من يتفضل برفع السماعة، لكن في أغلب الأوقات لا يرفعها أحد. وصوتُ رنة الهاتف من الأصوات الثابتة للنزل، مثل صوت التلفاز وماكنة الثلاجة ودقات الساعة و..

مازال الرجل هو هو، لم يتغير. حين يتحدث فاتحاً فمه، تتجمع الرغوة على جانبيه. يقولُ عن رسالته الجامعية بأن عنوانها يَملأ كراساً يتكون من أربعين صفحة، ويضطر إلى هز رأسه لنبوغه.

Twitter: @ketab_n

-٧٩-

سارا تلك المنافسة التي هربت منها محتمية بالمقبرة، وغسل الموتى لأنها أكثر شباباً، وأكثر كداً في العمل، ولا تخجل من القيام بأي عمل يسلم لها؛ غسل الميت وتنظيف المرافق وإدارة العمل والطاعة العمياء. تقوم بأيّ عمل وبكل دقة وحرص. لا تبدأ بعمل إلا وهو على أكمل وجه، كل من رآها داخلة المقبرة ومكان غسل الموتى بخطواتها الواثقة، تيقّن أنها جاءت عازمة على العمل مهما كلف الأمر.

زميلتي أعجوبة، أما أنا فقد انكمشتُ على ذاتي في العمل، وبتُّ أخافها. إنها تصغرني أربعة أو خمسة أعوام. لها وجه وقوام في غاية الروعة. عندما تنحني على المتوفاة للتأكد من لمعان الجسد، يشبه انحناؤها هبوط ملاك جاء ليحمل ميتاً عن الأرض. رشاقتها هذه لا تشبه أيّ لعبة، إنها تشبه باربي، نعم باربي؛ ذلك الجمال الأسطوري نفسه والرشاقة الخرافية، والخواء العقلي.

الجدار الزجاجي الذي يحيطُ حوض الماء، يسمحُ لأهل المتوفى مشاهدة الغسل والتكفين، النساء العربيات ينسين أحياناً لما قدمن. وهن يتابعن عمل سارا، تأخذهن موجة حمية فيزغردن، وسارا لا تعير لهن اهتماماً، فهي ذائبة في عملها، تعاملُ الأحياء كما تعامِلُ الموتى. لم أرها إلا هكذا. وفي أرضها الموحشة، لا وجود لأقل بصيص حياة.

Twitter: @ketab_n

-٨٠-

لا أفهمُ ما تقوم به دومينيك. بعد كل ذلك الجفاء لي، باتت تسعى خلفي وتتقرّب مني. إنها تعاتبني على: لماذا لا أذهب إليهم مثل السابق؟ لماذا لا أزورهم لتناول العشاء معهم؟ لماذا لم أشاركهم في نزهتهم الجماعية؟ لماذا أرجعت جاكيت الحرير عليها؟ ولماذات أخريات.

أقفلتُ كلّ الأبواب أمامها، وأجبتُها بسُكوتي. حتى لم أحاول إذابة سوء الفهم الذي كبر قبل فترة بيننا. لم أدافع عن عدم ذهابي معهم أو رفض هذه الحميمية، ولم أجد لدعواتها المُنسكبة علي حُججاً مثل جاءني أحد أفراد عائلتي من إيران، أو لدي امتحان، أو مرضت، أو أكاد أموت، وهو الأقرب لي. لم أكن مُستعدة لتغيير تصرفي معها، أو أخلق أعذاراً، وإذا لم تقبل دومينيك بي كما أنا فهذه مُشكلتها. في البداية، سعيت لمعرفة علّة هذا التودد، وحين لم أصل لنتيجة، خزنتها مع مجموعة القضايا التي لم أعرفها بعد.

وتعدى الأمر بدومينيك مع توني إلى ضجرها وجزعها منه لتشتكي لي منه، فبقيت أحدق في عينيها العسليتين واجمة. لم أدافع عن توني، لم أكن أريد فتح باب لها لتلج منهَ في تجريح توني، وما دخلي أنا؟ ولماذا علي مساعدتها؟ تقول بأن كلّ ما تقوم به هو من أجل توني، وإنها تتحسّر على حاله، وعندما تتحدّث عنه توحي بأنها في غاية الحزن عليه:

"خوان ليس راضياً أبداً عن تصرّفاته، أنت تعرفين طبيعته؟"

"أي تصرفات؟"

Twitter: @ketab_n

"يحب ألا يمس أحد زوجته".

أردتُ أن أنفجر ضاحكة، لكني تمالكت نفسي، لأن دومينيك لم تقل هذا من باب المزاح، فأخذتُ الأمر بجدية، والموضوع جدي أيضاً. لا يمكن المزاح مع زواجها وإقامتها في فرنسا. هناك أرامل بعد أعوام من موت أزواجهن، لا يَحصلن على اسم الزوج بالطبع، ويختص هذا الوفاء بالفئة التي لا يحصلن على أزواج آخرين.

Twitter: @ketab_n

-٨١-

أستبعدُ أن يكون هناك من لا يعلمُ بعذرية بوجا. هل عذريتها هي التي خلقت دافعاً للذكور في نزلنا للتقرُّب منها؟ استعنتُ بنعيم وهو الرجل الوحيد بين يدي، وسألته في أحد الأيام، وطلبتُ منه أن يصدقني في إجابته بكلّ صراحة.

نعيم مشغول بإصلاح قلب مسجله القديم ورئته. لم يفهم سؤالي، أو أنه فهمه واستحى أن يُجيب عليه. على أي حال، أجبرتُ على إعادة السؤال، رغم ذلك رفع نعيم رأسه، وقال لي بصوت عالٍ:

"كرّروا علي سؤالكم مرة أُخرى".

لكنني للتو أعدتُ عليه السؤال، هززت كتفي وصغت هذه المرة السؤال بدقة أكثر:

"قصدتُ، كم ستطلبُ للمس بوجا؟"

"ألمس بوجا؟"

"نعم، بوجا، تلمس بوجا".

رسمت جازعة بيدي في الهواء الشكل الذي طالما وصف به جسد المرأة، وقلت:

"تعرفُ ما أرمي إليه؟"

"لا، لا أفهمكم".

Twitter: @ketab_n

لماذا تحول نعيم فجأة إلى أحمق؟ رغم أن القضية ليست عويصة. بوجا امرأة قبيحة، ومن الطبيعي أن الرجال لا يرغبون بها. إذن، لماذا يصر نعيم على عدم فهم القضية بكل عفويتها؟ وأنا أيضاً لا أتراجع بهذه السهولة.

ولكي أكون مرتاحة وحرّة في التعبير عن وجهة نظري، ابتعدتُ عنه قليلاً ثم قلتُ له بصميمية تستوجبها هذه مثل هذه الحوارات:

"عزيزي نعيم! لماذا تصرُّ على أنك تتفادى بوجا؟"

"نحن من قال أننا لا نفكر في بوجا؟"

"إذن دارت ببالك؟"

"بالطبع".

"إذاً، فكرت ببوجا كامرأة؟"

"نعم، فكرنا فيها. أنا كرجل، وبوجا كامرأة".

تفاجأت. لا أستطيع التصديق. ولا أعلم لماذا حزنت، والآن حاولت الحفاظ على جأشي، فقلت:

"الأمر طبيعي".

"بالتأكيد طبيعي، لا تشكوا في الأمر".

"ولم لا؟ هي امرأة و..".

ضغطتُ على نفسي لكي لا أصرخ قائلة وأي إمرأة هي؟ أقصد قبحها، فقال نعيم مستغلاً صمتي:

"ونحن رجل".

"بالتحديد، هذا ما أردت قوله".

Twitter: @ketab_n

خيم السكوت مرة أخرى، حصلت على إجابتي ولم يبق هناك ما يقال. ما أردته هو معرفة هل يميل نعيم كرجل إلى بوجا كامرأة، أم لا. فقال نعيم نعم بكل صراحة. إذن، انتهت القضية، ولم يبق لبس فيها. مع ذلك، أحسست بغصة مؤلمة لا تسمحُ لي بالاستمرار معه، ثم أضفتُ لإكمال ما انقطع:

"الأمر طبيعي بالطبع، أنك فكرت بالنوم مع بوجا، أو ما زلت تفكر به، وماذا لو أصبحت شاغلة ذهني، صحيح؟ يعني أردتُ أن أقول أن وصول الأمر إلى هذه الدرجة طبيعي، في الواقع يعني.."

لو كان في العالم كله كلمة أكره سماعها أو قراءتها، والأسوء أستعمالها، هي هذه الكلمة، حتى أني لا أودّ تكرارها. لا أعرفُ كيف قفزت مني هذه الكلمة في ذلك اليوم! صحيح أن علاقتي بنعيم، رغم أنه شريكي في البيت، ولكنها ما زالت تسير في حالة من الرسمية. حتى نعيم لم يجبني، نظر إلي للحظات ثم عادَ إلى عمله، ثم قال بعد فترة صمت، وبلا مُقدّمة:

"ما الذي تعرفونه عن الرجال؟"

انزعجتُ من سؤال نعيم، لا أحب أن أواجه بقلة معرفتي، فضحني اللون المكتسح لوجهي، استعرتُ أسلوب نعيم في الحديث، قلت:

"ما الذي يجب علي معرفته؟"

لكن نعيم لم يجبني، كأنه لم يسمع سؤالي. هز رأسه دلالة على تأسفه، وهو مُنهمك في عمله، وقال:

"أنتم لا تعرفون عن الرجال أي شيء، أي شيء".

Twitter: @ketab_n

-٨٢-

"الأطفال يقولون أن هذه السيدة السمينة ذات الابتسامة الجميلة هي عمتهم"

"أي عمة هذه؟"

"هي عمة".

"عمة حقيقية أم عمة بالاسم؟"

الإبن الأكبر وهو يلعب بالأتاري هز كتفيه سائماً مُحرّكاً شفتيه الممتلئتين بأحرف لم أفقه شيئاً منها، لكنها تشير إلى- وما أدراني أنا- لو لم تكن موجهة لي، لكان خروج صوته من مكان آخر، لا أعرف، والأسوء هو أني لا أريد أن أعرف. هؤلاء الأطفال فقدوا روح الطفولة، روح البحث أو الفقد أو الإحساس بأن هناك ما غاب، ولا يمكن تعويضه، لكن تقبل الأمر بالنسبة لي صعب. أعتقد أنهم يمضون في حياتهم غير آبهين. إذن، لما تصل ذات صباح امرأة سمينة وقصيرة لبيت هؤلاء الأطفال وتدّعي أنها عمتهم؟ وبلا إرادة، أتذكر قصة شنكول منكول(*).

كم شخص منكم لديه عمة تنامُ إلى جانب أبيه؟ قد تكون اللغة الفرنسية هي التي سبّبت هذا الإرباك اللغوي، إذ يُقال للعمة عمة، وللخالة عمة، والآن يقال لرفيقة الأب عمة أيضاً.

أمام موت حنا، أحسستُ بالمسؤولية أكثر من يوم كانت على قيد

---

*) اسم قصة من التراث الشعبي الإيراني، وشنكول ومنكول إسم عنزتان تدور الحكاية حولهما. المترجم

Twitter: @ketab_n

الحياة. أتهوّع كلما وقعَ نظري على صورتها المعلقة فوق السرير، وبالتحديد فوق سريرهما. ألم يجدوا مكاناً أفضل من هذا؟ حناي العزيزة بوحي لي، أي مشهد الآن لا تريه؟ لم يؤثّر إصراري معهم لكي يُغيروا مكان الصورة، بل أساؤا فهمي. في ذلك اليوم، وبمواجهة ١٨ عيناً؛ اثنان للزوج، ١٤ منها للأطفال وعلى الأقل اثنتان لإمرأة البابا- إذا لم تتحولا في تلك اللحظات أربع- قالوا لي:

"هل تريدين أن نعطيك الصورة؟"

لي أنا؟ تعطيني الصورة؟ ولم لي أنا؟ إذن، ماذا عنهم، ألا يريدون أن تبقى لهم من أمهم ذكرى؟ ولكن الأطفال بأعينهم المتقدة التي تشبه أعين الضفادع بدل أن يحركوا ذيولهم، حركوا رؤوسهم.

في لحظة خاطفة، نُزِعَت صورة حنا من الجدار، ثم انتقلت من يد إلى يد حتى وصلت إلى الإبن الذي يكبر آخر طفلي العائلة، وسلّمها لي. كان الأمر يشبهُ تسليم جائزة.

حنا الآن بين أحضاني، لم تكن ذرة نظرة شكر في نظرتها بل بياض عينيها وقد غطّاه الدم، وتظهر ابتسامتها قوة أسنانها ومتانتها. هذه النظرة، وهذه الابتسامة لا تدل على محبة، بل تهديد.

Twitter: @ketab_n

-٨٣-

جاءت سارا بأسوأ الظروف إلى فرنسا لتحصل على الإقامة، وحصلت عليها. وفي فترة عطلتها، وجدَت لها عملاً آخر. وتحلم الآن بمستقبل قريب تعدل فيه وضعها المعيشي وزواجها، ولذلك كان عبد الحميد الرجل الوحيد المتاح لها لتتودد إليه. وإن كان هو بعيداً عن هذا التودد، لكن سارا تحلم بالزواج منه، وخطّطت له، حتى أنها عينت تاريخ زواجها منه:

"الثاني عشر من شهر أغسطس".

"الثاني عشر من شهر أغسطس؟"

هززت رأسي غير مُصدّقة، وسارا وضّحت لي علة تحديدها لهذا التاريخ لإقامة مراسم عرسهما. تتحدث سارا وهي تصوغ جملها لتوحي أن ليس هناك خطب ما، ولكي لا يسيء السامع فهم الأمور، بل السامع أحمق وبطيء الفهم، وسارا توضح له، وتسهّل عليه لكي يستوعب ما يُقال. وهذا لم يكن سوى من فضلها على السامع.

لقد وضعت الفتاة رجلاً على رجل، وبين فنية وأخرى تنظر، ليس لي، بل لمن خلفي أو ناحيتي، وإذا مرّ من لا يعرفها لن يتخيلها فتاة صربية جاءت للعمل هنا من أجل لقمة العيش، بل بنت رئيس جمهورية فرنسا.

"نعم، الثاني عشر من شهر أغسطس. أفضل وقت ممكن للزواج. المقبرة أيضاً في عطلة. وبإمكاننا أن نذهب أيضاً لبلادي ونقيم هناك أياماً. ممكن أيضاً دعوة أبي وأمي لزيارتنا. ولا داعي لإقامة

Twitter: @ketab_n

عرس كبير. إنما يكتب الكتاب في البلدية، ونعمل حفلاً مُختصراً بحضور أهلي، وبعض أصدقائي يكفي.."

"إذاً، ماذا عن أهل عبد الحميد؟"

"أهل عبد الحميد؟"

أصابها الرعب، وهزت رأسها نافية. لا أدري أين الخطأ فيما قلته، ألم تكن تدري أنّ لعبد الحميد أهل، وقد تظن أن الرجل البائس ولد من شجرة.

Twitter: @ketab_n

-٨٤-

يوم الأحد يوم خاص، لا لأنني أبقى نائمة حتى الظهر، ولا بسبب رؤيتي لأصدقائي. فأنا لا أراهم إلا في العطل، ولا للفرصة المتاحة لمُشاهدة فيلم جديد أو مسرحية أو حفل أو أوبرا. هو يوم خاص، لأنني في هذا اليوم أستطيع العمل مكان من خصص هذا اليوم لمثل تلك الأمور. فأنا أعمل وأحصل على ضعف ما يعطى في الأيام العادية، وبإمكاني الاستفادة من خلو المصبغات لأعمل على غسالتين في الوقت نفسه. وفي مدة قصيرة أغسل ما أقدر غسله. فأذهب إلى سوق الصينيين والعرب والأفارقة وأشتري البائر من السلع بأقل قيمة. وأقدر أيضاً أن أصنع عن طريق خلط عدّة مواد مُنظفة لأجعل البيوت تتلامعُ مثل المرآة. لذلك، فإن يوم الأحد يوم خاص، ولو جعلوا الـ ٢٤ ساعة ٤٨ ساعة، لتمكّنتُ من العمل أكثر، ولكان أفضل.

مع ذلك، لا أستعجلُ بالنزول من سريري أيام الآحاد، وهو البذخ الوحيد الذي أسمحُ لنفسي به. في هذا اليوم، لدي وقت للبقاء أكثر في السرير، وإن لم أكن نائمة لأني لا أحب النوم. خاصة أني لم آتِ إلى فرنسا من أجل النوم، أنا آتية لهذه البلاد من أجل الصعود. مع ذلك، بإمكاني التلذذ بيوم الأحد، وأنا أفكّر في تنسيق برنامجي، لكن يوم الأحد هذا يختلف عن بقية الآحاد.

Twitter: @ketab_n

في ظهيرة ذلك اليوم، وعندما كنت أعود من العمل، تذكّرتُ توني. كلما فكرت بالبوح، أتذكر توني. على كلّ حال، يجب التحدث مع شخص بصدد ما يلم بي، لكني لم أكمل بعد ما جئت للبوح به حتى قاطعني توني:

"تعرفين؟ الحق معك، أقصد فيما يتعلق بعملك. في الحقيقة هو متعب، وسيء للغاية، حتى الحديث عنه يُسبّب العقم. برأيي أن عمل غسل الموتى أسوأ من عمل عزرائيل؛ أن يعمل الإنسان على تنظيف الموتى وتجميلهم لهو أمر مُنفّر، مثل الكذبة الكبيرة، من تلك الكذبات التي يُقدّمها رؤوساء الجمهوريات والقادة لشعوبهم. أنتِ أيضاً بعملك هذا تكذبين؛ تخدعين؛ تريدين إفهامهم أن الموت ليس بذلك السوء المتخيل. وفي حال أن الموت هو الأسوأ، بل أسوأ من الأسوأ، ولا يعرف ذلك إلا من هُم مثلي، من شارك في الحرب في الجبهات وسط المعركة، أولئك من قتلوا مرّة وقتلوا مرّات".

ثم سكت فجأة، مثل ساعة تتوقف عقاربها فجأة، حلق الصمت في الغرفة، ذهب إلى سريره، رفع نفسه ورماها تاركاً ظهره لي.

شعر توني طويل وكثيف، ينسابُ الآن على المخدّة. قفاه عريضتان، إنه رياضي ثم لا شيء، جسد رفيقي الرجولي يشبه فيلماً يقطع فجأة تاركاً أثراً سلبياً على المشاهد.

"كنتُ في فيتنام، وقتلتُ على الأقل ثمانية أشخاص، ستة منهم فيتناميون صِغار لذيذون من أولئك الذين يكمُن نصفهم تحت الأرض".

Twitter: @ketab_n

ثم ضحك ونظر إلى أسفله، وقال:

"والنتيجة كانت هذه، انتقمَ الله مني تحديداً في اليوم الأخير من خِدمتي العسكرية. يوم كنت أقفُ فوق الدبابة، أريد التقاط صورة تذكارية، ووقعت هذه المصيبة".

Twitter: @ketab_n

-٨٦-

لم أكن مستغرقة في النوم لدرجة تمنعني من سَماع الصوت الصادر من غرفة نعيم، بل أدركت ما مَعناه. سمعت صوت فتح الباب وإغلاقه، والسكوت المخيم على غرفته. لم يكن سكوتاً عادياً. وبينما كنت أفكر بكل هذا، غفوت. كم من الوقت مرّ وأنا نائمة؟ مع مرور الوقت، صرتُ أعتاد على الأصوات الصادرة من غرفة نعيم، وأثناء غيابه أشعرُ بأن هناك خلو في قعر ذهني، والآن أشعر باكتئاب، وكأنما أخذنا حلماً نحضره معنا لليقظة، وهذا ما حدث لي عندما صحوت من النوم على حلم.

ارتديتُ الروب بسرعة، وقبل أن أربط الحزام، فتحت الباب، ذلك الباب نفسه الذي يفصلني عن نعيم، خاصّة أني أحكمُ إغلاقه مساء، حتى ليوشك إحكام إغلاقه ليلاً مُستعصياً عليّ فتحه نهاراً، ماذا ينتظرني خلف الباب وماذا سأصادف؟

فتحتُ الباب. لا شيء أبداً. هذا ما يشير إليه الموقف في البداية، إذ كان سرير نعيم خالياً، وكانت الغرفة كذلك. ولي حاسة لا تخرج إلا في هذه الأوقات، تقول لي بأنه ليس في الحمام، رغم أني لبستُ نعالاً، وقصدتُ الحمام المشترك بيننا، والواقع في نهاية الممر، لكني عدتُ صِفر اليدين، جالسة على سرير نعيم منتظرة.

من المُمكن أنه ذهب لشراء الخبز أو السجائر أو اللوموند التي تباعُ في أيام الآحاد أكثر من بقية الصحف. عدّة احتمالات مررتها، مرسلة نعيم إلى جهات عديدة. وكنت أعلم أن نعيم يقصدُها باكراً، وحتى لو خرج، فلن يطول الأمر معه إلى هذا الوقت.

Twitter: @ketab_n

تمدّدت على السرير وبقيت على هذه الحالة. لا أعلم ما الذي دفعني إلى عدم الاهتمام بالزمان مثلما كنت أفعلُ عادة. وأعرف بأني لن أبقى اليوم كله بلا عملٍ أو بلا هدف، لكني لم أخرج. لم أرد على دعوة العمل من أنستيتو كاثوليك بردٍّ إجابي كما هي العادة. أجلت غسل الثياب لما بعد، وبنظرة خاطفة، رأيتُ أن المنزل مثلما هو؛ ليس وسخاً، فجلستُ أشاهد التلفاز طوال يوم الأحد، وكانت القنوات تمرّ بسرعة أمام عيني.

البيت موحش إلا مني، وذبابة تهاجم الزجاج مصدرة ارتطاماً ممزوجاً برفرفة أجنحة. لا أحدَ هُنا إلا أنا وهي.

Twitter: @ketab_n

-٨٧-

بوجا تتقرّبُ مني صانعة ابتسامة ودودة مُقدّمةً نصائحها، خاصة أن أفكر بنفسي، وما سأنتهي إليه:

"بم أفكر؟"

"وحيدة جداً.. أنت".

"وحيدة؟"

"نعم، وحيدة. إذن، متى تجدين لك صديقاً؟"

"لكن، لدي أصدقاء كثر".

"لا أقصد صديقاً عادياً، بل صديقاً حميمياً. صديق تقسمين الوقت معه، يومك، ليلك، تعرفين؟"

مُضيفة حركة ناعمة وغمزة، كدتُ أجن، بوجا تتكلم عن ضرورة وجود صديق؟ إذن، أين تذهب الأصالة والنجابة والعذرية؟

إلا أن مُصاحبة الحركات السريعة والصغيرة الخاصة بالهنود عند حديثهم، والتي تتمحور حول الرقبة والرأس، تشير إلى عدم فهمي، وإلى حزنها من أجلي. هذه الوحدة التي كانت تراها من أجودِ ما يُعاش قبل أشهر، خاصة فيما يتعلّقُ بالحياة مع شخصٍ آخر، تبخّرَت فجأة. وكانت تتحدّث عني على نحو مُثير للشفقة، وكأنها لا تعيشه هي نفسها.

في تلك الفترة، كانت بوجا سعيدة، وصوتُ خطوها في الممر لا ينقطع. إذا لم يتشقق باطن رجليها، فعما قريب ستحصل على شقوق.

Twitter: @ketab_n

يصاحبُ خطوها صوتها الناشز. أغانيها الحزينة التي تُردّدها تذكرني بالأفلام الهندية. ترفعُ من صوتها حتى يكاد الإنسان يظن أن أوتارها الصوتية توشك على الانفجار، ولكن في الدقيقة التسعين تعيد شحن صوتها، ليعود أقوى من السابق. حزينة أنا من أجل بوجا، لأنها حشرت بين هذه الجدران المظلمة، إذ ليس فيها مساحة كافية، ولا أشجار أو حتى أعمدة تختبئ خلفها.

صوتُ غناء الفتاة الهندية يصلُ إلى أعلى نقطة، وهو يأتيني من خلف الباب. بالطبع لست المقصودة بهذه الآهات العاشقة. لذلك بقيتُ أراقب أي حركة تصدر عن نعيم. كنتِ أكتبُ بلا توقف، فاتحة الكتاب بقوة بين فترة وأخرى، ثم أبقى مُنتظرة. هل باستطاعتي سماع تقليب نعيم لأوراقه؟ لا صوت يصدر من غرفته، الظاهرُ أن لا سبب هناك يجبرُ نعيم على تمثيل ثباته.

Twitter: @ketab_n

أدخل توني أصابعه الكبيرة في شعر رأسه، وقال:

"في البداية، عمّ المكان دخان ونار وصراخ، ثم انتبهتُ للصحب يشيرون إلي. لم أعلم ما يرمون إليه ولِمَ يفعلون ذلك. كنت على ما يرام، شعرتُ أني في الماء، لقد غطستُ حتى السرة في وحلٍ من الدم. ارتعبتُ، لم تكن رجلاي تؤلماني، حتى ظننتُ أن سوءاً وقع ليدي. حركت يدي، كانتا سامتين. نظرتُ إلى أسفل جسدي، لم يكُن في مكانه! لم أر في عمري ما يشابه هذا المشهد. ركست حتى السرّة في الوحل، ولا أقدر على الخروج لأنه لم تكن لدي رجلان تخرجاني، تعرفين بما كنت أفكر؟ بحبيبتي ، بأنني لن أستطيع الاستمرار في عشقها".

ثم أدار توني ظهره لي، كنت أعرف هذه التصرفات منه، عندما يتأثر يدير وجهه إلى الناحية الأخرى، وأنا أيضاً وجدت فرصة لألملم نفسي. بعد ثوانٍ عاد وأكمل:

"سمعتُ أن الناس في مثل هذه الحالات يغمى عليهم، يعني رأيتهم، رفاقي، أصدقائي في الفصيلة، لم يغمَ علي، بل بقي عقلي يعملُ بكلّ قواه. لم أره يعمل بمثل هذه الدقة مثلما يفعل الآن في هذه اللحظات. لو كان بربع القوة التي يعملُ يوم كنت في المدرسة، لما وصل الأمر بي إلى هنا".

اقترب مني، حاذاني، نظر في عيني مباشرة، وقال بصوت هادئ:

Twitter: @ketab_n

"ما آلمني أكثر من أي شيء هو هروب رفاقي عني، خافوني. في السابق، وقعت هذه المصيبة نفسها علي عندما سقطَ حامل اللاسلكي في فصيلتنا مفتوح البطن، خارجة منه مصارينه، فضحكت عليه حتى أنه شاركني الضحك. بدا فرحاً لما حل به، وغير مصدّق أن كل هذه الأمعاء خرجت من بطنه. كانت نظراته تتفاخرُ لأن أمعاءه تسيلُ أمامه، ولا يتأوه ألماً. تمالكَ نفسه فجأة، ماتت ضحكته، اصفر وجهه، وشفتاهُ اهترتا، ليست شفتاه فقط، جسمه كله أخذ يهتز مثل عود متيبس، قد يكون برداناً.. لا أدري، البخار يخرج من بطنه المفتوح مثل قاطرة، ثم نحب مثل الأطفال وأمسك أمعاءه بيديه غير دار ما يفعل بها، لا أحد منا ذهب لمُساعدته، لأننا خِفناه، خفنا الاقتراب منه ولمسه، لمس ذلك الشيء الحار واللزج، هل تعرفين ماهو أسوأ شيء في العالم؟"

الفقر، المرض، أو على حدّ تعبير جدّ الفرنسيين الوحدة . كنتُ منشغلة بالبحث عن إجابة لتوني، إذ قال لي بصوت حزين:

"هو تبدل الإنسان فجأة من آدمي إلى وحش".

بعد لحظات صمت أضاف، وهذه المرة عاد بصوته الثابت:

"رغم ذلك، مع نوعية عملك، نستطيع تشكيل فرقة متكاملة أو شركة، أنا أقتل الناس وأنت تكفنينهم؟ ها ما رأيك؟".

Twitter: @ketab_n

-٨٩-

مهما فعلت، لن أستطيع الانسجام مع نعيم. رغم فقره فهو يحب البذخ، يشرب قهوته الصباحية في الخارج قاصِداً مقهى كونكورد التي تبعدُ قليلاً عنا، فيقول لي:

"النوازت هنا لا يوصف".

من أجل فنجان نوازت مُضاف إليه قطع حلوى يشتريها النادل من كشك الصحف مع صحيفة لوموند، يصلُ المبلغ مع الإكرامية إلى ٢٥ فرانك، هذا برنامجه الصباحي لا يتغيّر، حتى لو أمطرَت حجراً، إلا في أيام الجمع وأعياد المُسلمين، إذ يذهب إلى مقاهي العرب بدل مقهى كونكورد، فالأسعار فيها مُكلِفة للغاية. بينما يأخذُ العرب الطيبون والكرماء مقابل كل فنجان شاي أربعين فرنك. بالطبع، يُقدّم الشاي مع حلوى وبقلاوة وتمر، ونعيم لا يحب الحلويات أبداً، لذلك كلما أراد الذهاب إليهم، ينزع الشال والقبعة، يفاجأني تصرفه، لكني أسكت، إذ لا فائدة تُرجى من الحديث معه. نعيم، رغم تقريعي وانتقادي له، يستمعُ لكلّ ما أوجهه له بعناية كاملة، ومن ثم يعود كما هو نعيم.

من تَبذيرات نعيم الأخرى مُشاهدة أحدث المَسرحيات، وحضور الأوبرا، وذلك في الليالي التي تفتحُ الأبواب للزوار مَجاناً حتى يتمكّن الشحاذون والجوعى أن يتثقفوا، بل ينتخب الفترة التي تصل التذكرة بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فرنك.

يوم سألته عن السبب في طريقته هذه، هز رأسه وقال:

Twitter: @ketab_n

"لا أريد.. يأتي الناس كثيراً في مثل هذه الأوقات، وتفوح منهم رائحة عجيبة وغريبة، وأنا حساس جداً بالنسبة للروائح".

ولكن تلك الروائح لم تكن غريبة أو عجيبة، بل هي رائحة العوز والثياب العتيقة، رائحة فقدان المياه الدافئة، رائحة السكن في مكان يفتقد للنور، ومن أجل لقمة عيشٍ لا يمكنهم شراؤها. يؤخذون إلى مراكز خاصة تقدم لهم الطعام مجاناً.

انزعاج نعيم من الاختلاط بمثل هؤلاء الناس، أجبرني على إخفاء استغلال اليوم المجاني، وعندما أعود من المسرح أتشمم كل نقطة من جسدي خوفاً من بقاء ذرّة رائحة فيه تعود معي للبيت، لأن نعيم فيما يتعلق بحاسة الشم، إذا صدق، يتغلب على سالي فيها.

هُناك فانتازيا أخرى أصبحَت قرحة روحية لي، وهي امتلاكه لسيارة دودج، لم يمتلك سيارة؟ مادام يَقضي أكثر الوقت في البيت. وحتى لو اقتنى سيارة، لم دودج بالتحديد؟ سيارة أمريكية ذات ثمان سلندرات، عشطة للبنزين. تتجوّل في شوارع باريس الضيقة مثل سَفينة التيتانيك، وأخذت مكان سيارتين على الأقل. ويأخذها بين يوم وآخر للتصليح، وحتى لو عطلت لا يركب نعيم المترو حتى لو أجبر على صرفِ آخر ما لديه، فإنّهُ يستقل التاكسي، وإذا كان مُفلِساً يقصدُ مُبتغاه سَيراً على الأقدام.

ولأني أعارضُ امتلاك نعيم سيارة، لا أستطيع الركوب معه. لكن بوجا لا تُعارض، وترشف باطمئنان من فيضها.

بعد ذلك الأحد، أخذت بوجا ترافق نعيم لمشاهدة الطبيعة البكر.

Twitter: @ketab_n

-٩٠-

المُتوفاة إيرانية، لكن ليلى تصرُّ على مكالمتها بالعربية، في حال لو كان لديها ذرة ذوق لاغتنمَت حضوري كمُترجِمة، و لن آخذ منها فرنكاً واحداً على هذه الخدمة.

لم يتعدّ عمرُ الفتاة السادسة عشر، إلا أنّها تمدّدت أمامنا جامدة. انساب شعرها الأسود إلى جانبها، وبأقلّ حركة منا يتموج ضارباً أطراف الحوض. ما هي أسباب الوفاة؟ لا أعرف. ملف الميت يبقى في مكتب عبد الحميد، وهو سري جداً، ولا أحد يطلع عليه أبداً.

وإن كنت لا أعرف سبب موتها، إلا عيناها تحكي على الأقل أنها صادفت الموت مرّة قبل أن تفارق الحياة، مازال فمها الموارب يرسم دهشة، تختلف عن باقي الجُثث الممدّدة، ومع كلّ لمسة لها أتوقع قيامها مُمسكة بمعصمي لتسألني: "ما الذي تفعلينه بي؟"

هذه المرة الأولى التي أغسلُ فيها أحد أبناء وطني، بنت الوطن صغيرة، صغيرة جداً، ولدي شعور خاص تجاهها. كنت دائمة الاقتراب من الجثة، وأنا خائفة، لكن هذه المرّة مررتُ يدي على جسدها، تنازعُني نفسي للمرور أكثر. وبلا شعور، وضعت يدي على جبهتها، ثم لاعبتُ شعرها، ولم أقدر على حبسِ دمعة وحيدة. لا أحد يبكي من أجلها أو يحزن، لا أهل لها ولا أصدقاء-كانت عاجزة لدرجة أن تبكي مساعدة غاسلة الأموات- هذه هي العلامة الفارقة لها في هذه اللحظات.

هناك امرأة سمينة جاءت من السفارة الإيرانية لمُرافقة الجثة، امرأة لم

Twitter: @ketab_n

نتعِب أنفسنا بسؤالها عن اسمها، مكتفين بـ "madam"، جاءت حتى تسهل لنا الأمور الإدارية المرتبطة بـ "الجمال الراقد" لترحيله إلى وطنه، وهكذا كانت تنظرُ للفتاة كعمل إداري لا غير.

المدام سمينة لدرجة أن خطاها تشبهُ حركة سفينة نوح وهي تمخر عباب البحر، تتمايلُ يمنة ويسرى بحذائها الذي طال استعماله من كثرة المشي، وهي تشتكي لكلّ من تلاقيه من ضَخامة المكان ووسعه، وأنه متاهة. كانت تنفخُ متململة بشفتين ضخمتين مُشيرة إلى الأدراج التي يدخلُ منها المراجعون إلى القسم الإداري للمقبرة، وتقول:

"c'est beaucoup"

تضربُ يداً بيد بقوّة، حاثة إيانا على الإسراع في العمل وإتمامه، وهي تشير بأصابعها البيضاء والضخمة إلى ساعتها لتحدّد وقت إقلاع الطائرة، ولأنها مُستعجلة جداً، فكل شيء في نظرها "bone ".

Twitter: @ketab_n

-٩١-

الهند ملأى بالدخان والناس، ملأى بالريشكا والتاكسي التي انتهى عمرها وكتبوا خلفها "الرجاء اضغط على البوق"، ولأنه يرجى من الجميع الضغط على البلاق، وبلا مجاملة فقد تعطّلت عقولُ الناس، الهند مملوءة بالغربان الهزيلة والكلاب الضالة، والأرانب الهندية يصل شعرها إلى أرجلها، وهي تحشرُ أنفها الطويل أينما أحبّت. الهند مملوءة بالخيل والقرود والجمال والفيلة والأبقار، فالأخيرة أينما أحبّت تمدّدت، وبكل وقاحة، فضلاً عن أن أحداً لا يجرؤ على إزعاجها، فهي مُقدّسة إلى دَرجة التبرك أحياناً ببولها.

أحمدُ الله على معرفتي بهذه الأمور عن الهند، وتكررت على مسامعي من أكثر من شخص، وإلا لما كان لدي أدنى شك أن الهند هي اسم آخر لسويسرا، وذلك مما تكيله بوجا من مديح إلى بلادها.

تصفقُ بيديها السوداوين الكبيرتين، فتصطفق الحلي على جميع أشكالها بعضها بصوت مُختلف، تكور شفتيها الممتلئتين مُتأسفة لعدم زيارتنا الهند، وحياة أجدادها! الفتاة الكذابة ظنت أن أمامها حمار، بلا شعور. أدرت وجهي ناحية نعيم لنتبادل نظرات ضاحكة على بوجا، صدمتني أذنا نعيم وهي تكبر باستماعها، يا إلهي! كيف يحدث ذلك؟ نعيم المسكين، لم يلتفت للنظرة التي أرسلتها، بل لم يرني وأنا أُمحى في الكلمات، وقد يمحى مع بوجا نفسها.

البنت كانت تدعونا أنا ونعيم لقضاء العطلة في الهند، كانت تستعمل ضمير "أنتما"، وتضيف ضمير المثنى للأفعال الموجهة لنا، لكنها لم تنظُر إلي أبداً، كانت تتجه بكليتها لنعيم، قالت:

Twitter: @ketab_n

"يجب البدء من مومباي.. لا يمكن تجاهلها، تلك المباني القديمة، وهناك أناس من مُختلف الأماكن، آلاف وسائط النقل، أشكال من السياح و.."

تستعملُ بوجا كلمة مومباي بدل بومباي كما يفعلُ الهنود، وكلما ذكرت بومبي وهي مسقط رأسها، ترفع يديها عالياً ثم تنزلهما مثل انهيار جليدي، لتشير إلى ماذا نقول ومن أين نبدأ. اختلطتِ علي الأمور لمجرّد التفكير بذلك الزحام واللانظام.

"الهند أكثر أماكن العالم التي تستحق الزيارة. أغلب السياح يقصدون الهند في سفرهم الثاني أو الثالث، حتى أولئك الذين لم يستمتعوا بزيارتهم الأولى، يعودون لزيارتها. عندما تأتيا مرّة، لن تكون الأخيرة، سترتبطان بالمكان".

مع إنهائها للجملة الأخيرة، كادت تصل انفراجة ابتسامتها لشحمة أذنيها، أي لعابٍ سال من شفتيها! لولا العناية الإلهية لجرفنا معه.

Twitter: @ketab_n

صممت في ذلك اليوم على عدم الذهاب إلى الصف، ثم عدم الذهاب إلى العمل، ثم عدم القيام بأي عمل والبقاء في السرير، من أين جاءني هذا الضجر، كنت في أسوء حال متمنية لو كنت مريضة.

طبعاً لا أقصدُ مرضاً خطراً، بل حمى عادية لا تؤدي بي إلى الموت. كنت مُستلقية أفكر بكل شيء ولا شيء، حتى اقترب موعد الصف فندمت، سألت نفسي لم بقيت في البيت؟ لم أكن مَريضة بل ضجرة، إذا كان الإنسان لا يموتُ من الحمى، فبالتأكيد لن يموت من الضجر. كنت مشوشة إلى درجة أن قلبي أخذ يتصاعدُ مثل عنكبوت في حلقومي، وبسرعة نهضت. بسرعة حاولتُ بيدي المنهكتين جمعَ كُتبي المُبعثرة في أطراف الغرفة، وحاولت على الأقل إيصال نفسي إلى نهاية المُحاضرة. لو وصلت لاهثة من التعب سوف يُقدّر الأستاذ تعلقي بالدراسة، ويأخذ تصرفي على محمل الجدّ، وتسير الأمور بشكل طبيعي. رغم ذلك، بداية بهذا السوء وإكماله هو حالة أسوأ من السوء.

في العتمة المطلقة، بحثتُ عن مفتاح البيت، عادةً لا أحد في مثل هذا الوقت في النزل، فأكثر قاطنيه هم من الموظفين أو طلاب الجامعة، خاصة صباح يوم الاثنين. وبعد يومين عطلة، والجميع يغادر المبنى، استمعتُ لصوت آتٍ من نهاية الممر على الجانب الأيمن. بلا شعور، امتدت يدي إلى مفتاح الإضاءة مُضيئة اللمبات السالمة منها.

هل أنا من تفاجئ بوجوده أم هو؟ حدقنا في بعضنا للحظات، في يدي توني شيء ثقيل، أداة طويلة ولها مقدمة معدنية حادة تتلامع وسط ظلام

Twitter: @ketab_n

الممر. لا أعرف كيف خطر لي اسم هذا الشيء، حتى قبل أن أتعرف إليه، رغم أني لا أعرف مثل هذه الأدوات جيداً أو لا شغل لدي معها، بلمحة عرفت كل شيء يتعلق بهذا المِسَن الحديدي.

أحسستُ أن توني خجل، وغضب لذلك، وقد خجلتُ أنا أيضاً وغضبت، فأنزلتُ رأسي خوفاً من النظر لعينيه مرّة أخرى، تجرّأت على رفع رأسي، انطفأت أضواء الممر، وكنت وحدي في ذلك الممر الطويل المظلم والموحش.

Twitter: @ketab_n

-٩٣-

أعرفُ أن الخطأ مني، إذ لا أستطيع التعامل مع أي عمل كعمل ولا الأشخاص كأشخاص.

خاصة أن الأمر اختلط علي من جراء ذلك الانتظار، ممكن أن الفتاة كانت صغيرة، أو لأنها من أبناء وطني. قد ينبع اختلافها مع بقية الموتى الذين رأيتهم حتى الحين، انتظرتُ قيامها في أيّ لحظة. عندما انتهت ليلى منها ولم يحدث أي تغيير، تسمّرت. لن أستمر مع الفتاة إلى نهاية مطافها، نضعها وسط الكفن للفها ونشد الجانبين بإحكام، ونضعها في صندوق لا ينفذُ له ضوء. الصوت المُنفلِتُ مني وأنا أحاول كتمه لفت انتباه الجميع، سيتساءلون: "ماذا بعد؟ ما مشكلة هذه المرأة هذه المرّة؟" كيف سأجيب على كلّ هذه الأعين؟ وبماذا سأجيب؟ لا شيء لدي ليقال. خرجت منكفئة على نفسي من مكان غسل الأموات.

Twitter: @ketab_n

توني يبحثُ عن سيجارته التي وضعَها قبل لحظات خلف أذنه اليمنى، قال ضاحكاً:

"الذنب ذنب هذه القامة التي لا تعلو على ثقب الباب. اللعنة عليها! لو كانت أعلى قليلاً أو أقل لا مشكلة، ولكن يجب أن يكون الطول على هذا الحدّ، يجب عليك أن ترفعي نفسك حتى الثقب وتلقي نظرة منه للداخل، لأنه بالضبط أمام عينيك. لا يحتاج الأمر إلى الانحناء أو رفع نفسه، بل الاقتراب من الباب فقط".

يتحوّل توني إلى مُمثل ما أن يلجَ إلى هذه الأحاديث المُحبّبة له، والآن كلما أراد تأكيد كلامه، يرفق قفزات من ذلك الجزء منه. يُقلّد طريقة الاقتراب من الأبواب دون أن يمشي، الرجل مُجبر على استخدام يديه رغم أن الحديث لا يحتاج إلى هذا التحريك.

"في البداية، كل شيء يسير جيداً. تفرحين بهذا الثقب الصغير، لكن ورويداً رويداً تفقد الرؤية من هذا الثقب الذي يحجبه مفتاح تجدُّدَها. من ناحية أخرى، ليس بإمكانك التراجع عنها لأنك اعتدتِ عليها. أقولُ اعتدتِ أفضل من الإدمان. لا تستطيعين الجلوس في الغرفة واضعة يداً على يد في حين هناك خلف الأبواب آلاف الأصوات والروائح والأحاديث تجذبك نحوها".

يخفضُ صوته، ليكمل قائلاً:

Twitter: @ketab_n

"ولكن، عندما تقصدين الباب، تفقدين ذلك الحس الدائم. لا يقدّم الثقب الأجوبة، وتفكرين لو كان هناك ثقب آخر أصغر إلى الناحية اليسرى لتحسّنت الأوضاع، لأنك ستتابعين القضية. حسناً، لا تستطيعين استخدام المثقاب الكهربائي؛ صوته عالٍ جداً. لا يبقى إلا هذا المِسن الحديدي الذي رأيتيه. بالإضافة إلى ذلك، العمل بالمسن له متعة خاصة، لأن الحفر يتقدم بكد وتعب، وإذا أردت الوصول لنتيجة، ليس أمامك إلا الكد بكلّ جهدك، وتقضين ساعات له، وفي كل لحظة تسألين نفسك: ما هذا الصوت؟ وتستمرين في إنعاش حياتك. ولن ينتهي الأمر بهذا الثقب، تذهبين للثقب الأيسر ثم الثقب الأسفل، و هكذا دواليك".

ارتبكتُ. لم يكن توني حتى حزيناً. إذاً، لما ظننت أنه خجل؟ وهو الآن يقص علي ما يفعله بكلّ وقاحة، ويعاتبني قائلاً:

"لا تنظُري إلي هكذا. لم أرتكب جرماً".

ثم يضيف بلحن آخر، قائلاً:

"وإن كنت قمتُ بهذا الأمر، وكأني لم أترك عملاً قبيحاً لم أرتكبه، أليس كذلك؟"

Twitter: @ketab_n

-٩٥-

بعد فترة، غيرت بوجا برنامج السفر تغييراً جزئياً، وذلك لكي أحذف منه. حتى أنها لم تر من الصالح إخباري، في حال أني كنت أعد نفسي لكل ذلك الزحام والوضع غير المُرتّب. وفي أحد الأيام، تخاطفت جمل السفر أمامي، وكنت مَحذوفة منها، بوجا استبدلَت ال أنتم بال نحن:

"يجب أن نبدأ من مومباي.. لا يمكن لنا تجاهلها، الأبنية القديمة، ناس من كل فج، وسائط نقلية لا تُحصى، سواح من كل بقاعِ الأرض.."

أحسستُ أن هُناك من يخنقني ويصر إصراراً عجيباً على خنقي، ولم أحرّك ساكناً، تاركة له حرية أنفاسي، وماذا في ذلك؟ في الحقيقية! لو كان قتلي يسعد أحداً.. ولكني سعيدة، إذ لم آخذ كلام بوجا في يوم بجدية، أشعر أن هذه الرحلة لا يعتمدُ عليها، كأنّما هُناك حدثٌ ما سيقع ويهدمُ كلّ شيء. لكني مُستاءة مِن نعيم، إنّهُ غير مبالٍ بمرافقتي لهم. وبينما هو يكتب الفهرس المطول لما يحتاجونه، قال:

"أنا سعيد من أجلكم أكثر، سوف تستطيعون قضاء أشهرٍ بلا مُزاحم. العادة التي أحببتموها، الوحدة".

كيف لا يعرف نعيم مع كلّ هذا الذكاء والفطنة أني لم أعد مُعتادة على الوحدة كما كنتُ سابقاً، ولا أحب أن أبقى وحيدة مرّة أخرى. بوجا تقاطعنا مرّة أخرى. من غير الممكن في حضورها أن نكمل أنا ونعيم جملة بلا مُقاطعة منها، خاصة إذا تحدّثنا باللغة الفارسية.

Twitter: @ketab_n

"من دلهي نقصدُ شمال البلاد، نمر أيضاً على فرانسي، وننظّم البرامج حتى نكونَ مع بداية فصلِ الأمطار في مومباي، ها.. ما هو رأيك؟"

قد أصارحُ نعيم في يومٍ بمَوضوع مهم، لكني لم أصارحهُ أبداً، كم أود مُرافقته في هذه الرحلة.

Twitter: @ketab_n

-٩٦-

عزيزي الأمريكي غادر النزل. ربما غادر باكراً أو غادر مساءً. غادر في الوَحدة؟ في السكوت؟ لا أدري، لم أره بعد ذلك، رغم ذلك بقيت ذكراه في قلبي، ما بقي منه كذكرى هو الثقوب التي عولجت بدقة على الأبوب. كلما رأيتها، أتذكر توني وأشعر بأثر رحيله. أحياناً أشتاقه إلى درجة سماع زحفه على أرضية الممر. ألتفت إلى الخلف؛ عتمة وممر ضيق وموحِش، دائماً بلا روح.

Twitter: @ketab_n

-٩٧-

أمشي وحيدة في الشوارع، قليلاً ما أجد وقتاً للمشي، بدأت من الشارع القريب من مكانِ عَملي ثم ذهبتُ أبعد، لم أعلم كم طال بي الرصيف وأين أخذني، ولم يكُن السفر الداخلي أقصرَ من درب الرصيف. سعيتُ إلى معرفة كيف كنت قبل هذا وأيّ شعور يتملّكني، أقصد قبل بداية عملي في مكان غسل الأموات. أخذتُ أنفاساً عَميقة وأخرجتُها بقوة، أردتُ إخراج ما لصق برأتيَّ وأنا في العمل. أردتُ في أقصر وقت ممكنٍ إخراجها من قلبي، ومن شراييني، ومن خلاياي.

أعرفُ أنيّ لن أطأ ذلك المَكان ثانية، وإن كنتُ سأكون عاطلة عن العمل ومفلسة، وكنت أعتقد أنهم سيرسلون لي الرسائل، وسيعرضون علي عروضاً أفضل، لكنهم لم يسألوا.

قد يكون السبب أمران؛ الأول هو المدة القليلة لعقدي، والثاني هو تجديد عقد سارا.

Twitter: @ketab_n

-٩٨-

هناك في حياتي على الدوام مكان خال للونارد، حتى لو كنت لا أعرفه، الرجل الذي أهواه هو لونارد. ولم أتوان يوماً عن الإشارة إلى شبيهٍ له، وأقول لعائلتي والمُقربين مني: انظروا واحكموا، أنا أبحثُ عن شخص يشبه هذا بالتحديد.

ولدي، مع من حولي، على الدوام مشكلة. يقولون لي بعد شرح مفصّل عن الأمر:

"لم نعرف ماذا تريدين؟"

أول مرّة طرحتُ الأمر بين عائلتي الذين تابعوه بكل جدية، كأن حياتهم متوقفة على ما سيكون، اعترفتُ أني أنتظر لونارد. سألت أمي قبل الجميع وهي تضيق عينيها تعجباً:

"ماذا؟"

"لونارد".

ولكن نظرتها التعجبية تبعدها عني، لتوجهها لأختي وتسأل:

"ماذا تقول هذه؟"

"تقول أنتظر لونارد".

"سمعت ذلك، ما معناه؟"

Twitter: @ketab_n

"لونارد اسم".

"أجنبي؟"

"نعم".

نظرت أمي مرّة أخرى لي، وسألتني بخوف:

"ليس مسلماً أيضاً؟"

حركت رأسي نافيةً.

ألقى أبي نظرة على أمي، وأراد بنظرته مثلما يفعل دائماً أن يضع الأمور في نصابها، أو على الأقل تحديد وضعها، لكن أمي المسكينة ضائعة، ولن تعيدها نظرات أبي الضائعة، مشكلتها الأساسية هي الناس:

"ماذا نقول للناس؟"

"أي ناس؟"

قصدتُ بسؤالها إقصاء عائلة أمي، إذ تبدأ وتنتهي مفردة الناس بهم، وهي تجعلها تتعامل بهياج وتنعكس ردات فعلها:

"أولئك الذين نُعاشرهم، نتبادل الزيارت معهم، نعيش معهم، معهم.."

Twitter: @ketab_n

-٩٩-

أمسكت دومينيك خصلة من شعرها الأشقر تلاعبها، تبعدها عن عينيها وبحركة من رأسها تعودُ إلى مكانها مرة أخرى. الشعر المسكين لا يعرف أين سيئول به الحال. دومينيك في غاية السعادة، لم تفكر حتى في هذه الطريقة التي تخلّصت فيها من توني، قالت:

"هل تعرفين من أين عرفت أن تكبير الثقوب هو من فعل توني؟"

حدّقت في دومينيك عارفة أن نظرتي ميتة، ولا تشير إلى تأييد أو نفي، كنت أنظر فقط كعادة ليس إلا، غير رائية أحداً، لا دومينيك ولا المسيو خوان، وكلّ من نظرت إليه أرى فيه توني.

"من الغرف التي عولجت ثقوبها، كانت كلّها تخص الفتيات، إلا غرفتك أنت، كلّ هذا نقلته لخوان، ولكنك إلى الآن لم تطرَحي عليّ هذا الموضوع، أو على المسيو خوان. ظننتُ في البداية أن الأمر لا يعنيكِ، وأنت سعيدة بما يحصل".

أنهت الجملة غامزة لي.

"ذهبت إليك، وعندما ذهبت لإعداد القهوة تحققت من باب بيتك لم يلمس أبداً. من بين كلّ الأبواب باب بيتك لم يلمس، أليس عجيباً؟"

هززت رأسي نفياً ببرود. حركت رأسي ببطء، حركة بداية الأفلام السينمائية. أكملت دومينيك حديثها أمام برودتي الصاعقة، قدّمت تقريراً مُفصّلاً عن

Twitter: @ketab_n

تحقيقاتها، وكيف قبضت على توني مُتلبساً وهو يسترق النظر من ثقوب الأبواب، حتى ثقوب أبواب الحمامات والمرافق.

"النظر من ثقب الحمام يمكن فهمه على أيّ حال، هو رجل وإن كان.. ولكن رؤية امرأة في المرافق.. أي استمتاع فيه؟ هذا ما لم أفهمه؟"

مسيو خوان يدخن غليونه في صَمت، ونعيم كان يدخن سيجارته بصمت أيضاً. كانت لديهما وسيلة يهربان بها حين لا يودان الكلام، ولن يكونا مجبرين لمشاركة دومينيك الحديث. ولكني لا أملك ما أهرب به، و لا أعرف ما أفعله بعيني ورجلي وخاصة يدي، إذ هما أصعب ما أواجهه في تثبيته، أينما وضعتهما لا أشعر بالراحة، كأن آلاف البراغيث ترقص السامبا فوقهما.

من جانب آخر أشعر بالغثيان، كلما غضبت، تأتيني هذه الحالة الغثيانية. وكنت عكس هذه المرة؛ كنت منزعجة، ولم أفقد سيطرتي على نفسي، أو لم أفكر لما سيحدث حين أفقد زمامي، لألخبط كل شيء، أضفت السكر لنصف الفنجان حتى يَزيدني سوءاً، ثم بقيتُ صابرة حتى يصل القيء خلف أسناني. وفي الدقيقة التسعين، تركتُ الأمور تجري حسب ما هي، ثم أمسكت يد دومينيك بقوة وهربت.

Twitter: @ketab_n

-١٠٠-

صوت نعيم جاءني من الناحية الأخرى، من الهند، جاء من بين الهمهمة والزحام ومن أصوت الأبواق، من بين أصوات الأبقار والخيل والبشر:

"تمنيتكم معنا".

وكنتُ أضحك بصوتٍ مُرتفع، لكني كنت أبكي، وسالي تلحس دمعي المالح:

"ها سالي، ماذا تفعلين؟"

زجرت سالي، لكن الله يعلم أني لم أنزعج مما تقوم به. لسان سالي دافئ ورطب بعد قيامها بعدة لحسات لوجهي، ثم تبتعد عني لتحدق في عيني، أعرفُ أنه لا يكمن خلف تصرفها هذا غير عطف وود، آه سالي عزيزتي! ضربت بيدي على رجلي. أي سالي العزيزة، أخطأتُ آسفة لأني زجرتك، رمَت نفسها علي مرّة أخرى بكل ما تملك من قوة، ما أنقذني في هذا الصيف وجعلني أقفُ على قدمي هو العشق المُتسرّب من هاتين العينين الحول.

نعيم عاد إلى جملته المعهودة:

"حزينة أنت؟ أظن أنك لست في حال جيدة، صوتك ضعيف".

كرّر هذه الجملة طوال مدّة سفره، وكأنه تعلمها للتو.

لكني في أفضل حال ولست حزينة؟ وهل هُناك من يحزن لأن الركب تركه وحيداً، بعد أن خدع بالبقاء؟

Twitter: @ketab_n

-١٠١-

حزم مسيو خوان ودومينيك قبل أشهر أمرهما لشهر العسل، وعزما على الرحيل. لم يكن سفرهما قصيراً أو للبلاد الأوروبية المجاورة، لقد صمما بعد عودتهما الذهاب مباشرة إلى منزل المسيو خوان ليبدءا حياتهما، فيمكن التبريك لهما.

في صباح ذلك اليوم، تركتُ نفسي في حضن مسيو خوان الدافئ، وحاولت ألا أبكي، وحسب نصائح صديق لي خريج علم النفس، يجب علي التفكير في الجيد من الأمور، لكن ولأن الجيد نادر وبعيد، فأفضل طريقة هي عدم التفكير أساساً.

وشوش لي مسيو خوان بعيداً عن أعين دومينيك، وبصوت دافئ وناعم:

"أنت عزيزة علي، أعز من ولدي، أريد أن تعرفي أني أحبك من صميم قلبي".

هل قصدني أنا المسيو خوان؟ نظرتُ حولي لأتأكد أنّهُ لا يقصد شخصاً آخر.

"كنت خير صديق لي، ولنعيم، ولحنا، ولتوني. كنت للجميع متكئاً يُطمأنُ له، أنت شخص يمكن الاعتماد عليه والوثوق به".

وفي قمة تحمسه رفع يدي اليسرى، وقبل أن أتعامل مع الموقف، طبعَ قبلة.

مرّت أعوام منذ أصبحت هذه الحركة في أوروبا مُجرّد روتين أو عادة،

Twitter: @ketab_n

يقوم الآن بهذه الحركة أغلب الناس في مواقع خاصة، واستثنائية، عندما يريدون التعبير عن احترامهم أو تمييز الشخص عن الآخرين، لكنني آتية من أرض ومن ثقافة أخرى، يُقبّل الصغير فيها يد الكبير. خجلت من المسيو خوان، قبلة العجوز كان لها وقع ثقيل على يدي، وكأن ما أواجهه مع يدي قليل ليضيف بقبلة صعوبة أخرى. لم يكن أمامي حالياً غير أن أترك يدي تبتعد عني.

Twitter: @ketab_n

-١٠٢-

من خلف خط الهاتف، اكتشفت لم كل هذا الفضول يتملك نعيم. عن بعد مئات الأميال، بعد أن أخبرني بوصوله. في الأسبوع الأول لم يصلني منه شيء، ولكن منذ الأسبوع الثاني من وصوله بدأت اتصالاته، على الأقل كان يتصل في الأسبوع مرتين، يتصل أحياناً ثلاث مرات أو أربع. كان يصر على الحديث عن كل شيء، بينما تفصلنا جبال وصحارى وأراض؛ عن الأماكن الدينية والأثرية، عن أولئك الذين ينتظرون الموت على الطرقات، عن الهواء الرطب والرائحة الكريهة المنتشرة في كلّ الهند، ولذلك لا يأخذ أنفاساً عميقة.

ويعود ليعرف ما يجري في باريس، ماذا أفعل أنا، وكيف أقضي وقتي، ما هي نتائج امتحاناتي، هل وجدت عملاً جديداً، وكان يصر على معرفة الجزئيات؛ أي كتاب أقرأ، و ماهو آخر فيلم حضرته، وهل..

وأنا أريدُ أن أعرف كيف هي رحلتهم، كم يوم سيبقون في فرانس؟ بعد منطقة جيبور، أين سيذهبون؟ هل ما زالت خطتهم قائمة للذهاب إلى كشمير؟ عندها، كم سيطول سفرهم؟ أحببتُ أن أعرف ما تفعله بوجا، هل تعرف نعيم على عائلتها؟ كيف يتعاملون مع بعضهم؟ وأسئلة أخرى كثيرة، لكن كلّ شيء واضح بالنسبة لي، أيّ من هذه الأسئلة التي لن أقوى على طرحها.

Twitter: @ketab_n

-١٠٣-

وضعت أختي يدها على رجل أمي، وقالت:

"لما تزعجين نفسك بلا طائل، الآن مات لونارد".

نظرت أمي أولاً إلى أختي، ثم إلي، وعادت بنظرها لأختي مرة أخرى وتأوهت، أعرف أنها حزينة من أجلي، ترملي المبكر أحزنها، وفي الوقت نفسه شعرت بالخفة، مر الخطر بسلام، رفعت رأسها للسماء، وقالت لتخفيف الألم عني:

"رحمه الله".

قلت مجيبة:

"رحم الله أمواتك".

"تسخرين مني؟"

"لا أبداً".

"المهم، أين تعرفتما على بعض؟"

"في الكتاب".

لم تتحمل أختي فضحكت، قالت أمي مستاءة:

"عرفت أنكما تخدعاني، شكراً!"

Twitter: @ketab_n

ولحسم القضية، لكي لا يتصاعد حزن أمي، فصارحتها أن لونارد هو زوج فرجينيا وولف.

قالت أمي لي عاتبة:

"هل وصل بك الأمر لكي تقعَ عيناك على رجل متزوج؟"

"لأن زوجته ماتت يا أمي".

"إذن، أردت الاقتران برجل أرمل؟"

تدخلت أختي مرّة أخرى:

"أمي الحبيبة، الآن وقد مات لونارد، لماذا تتعبين نفسك؟"

الحق على أختي، ولم تجبها أمي، رغم ذلك شعرت بوجود شيء يعكّر عليها أوقاتها.

Twitter: @ketab_n

-١٠٤-

من قدامى النزل لم يبق أحد إلا أنا وسالي، أو الأصح سالي وأنا، جلسنا في تلك الأيام مُتقاربتين من بعضنا في السّاحة، ننظر إلى للأوراق المتساقطة من أثر قلّة المياه الذي لم تُصادفه فرنسا إلا قليلاً. أوراق البلوط ملأت ساحة النزل، وتركتها كما هي، أحب أن أبقيها هكذا، فهو يُعطي إحساساً أكثر بنوستولجيتها. ولا أظن أنها تختلف بنظر الآخرين، إن كانت على الشجر أو تساقطت على الأرض، ألا يجذبهم حضورها إليها؟

كنت أنا وسالي بعيدتين في ذلك الصيف عن المسيو خوان وعن دومينيك وعن الآخرين، بعيدتين آلاف الأعوام، الصيف نفسه الذي تركتُ فيه الدراسة، في أحد الأيام، وبينما كنت مُنهمكة في الدراسة، سألت نفسي: "لماذا علي معرفة ما يحبه الأطفال الفرنسيون من الكتب؟ الكتب الفضائية أم البوليسية؟ لماذا مازال جول فيرن مَحبوباً من قبل الشباب هُنا؟ لماذا يستمتعون إلى الآن بقراءة الأسطورة ؟ لماذا .."

كنتُ في تلك الفترة قومية حادة ومُتشدّدة، وأحدّد الآخرين حسب قوميتهم، الروس انفعاليون، الإفريقيون بدو، الأمريكيون بلا أصل أو نسب، الفرنسيون خاملون، العرب مازالوا آكلي الضب (الضب ذاته، وإن كان عمره عمر التاريخ نفسه، لكنه لا يفكر بالانضمام إلى المتُحجّرات".

حتى صادفت فتاة ولدت في اليابان من أب وأم صينيين، كبُرَت في أمريكا، لكن جواز سفرها كندي، ومن أجل تعلم الرقص ذهبَت إلى مصر وبقيتَ اثني عشر عاماً هُناك، تزوجت في فرنسا من فرنسي مما جعلها نصف فرنسية.

Twitter: @ketab_n

تحت ضغط مني يتكرر كلما رأيتها كي تحدد هويتها القومية حتى أعرف كيف أتصرّف معها، هزت رأسها وكتفيها، ثم قالت بكل هدوء وثقة:

"أنا هي أنا فقط".

أدهشتني بساطة الإجابة التي حصلتُ عليها، والتي تفتقت من ذهن راقصة، في حال أنّه شغلني عمراً.

Twitter: @ketab_n

-١٠٥-

أهم ما يشغل بال نعيم هو إكمال دراستي، وكأنه يتصل من أجل ذلك فقط، يخالفُ تركي الدراسة، وفي كل مرّة يأتي بالأدلة الداعمة لموقفه. كلامه مكرر، فأبعدُ سماعة الهاتف عن أذني:

"فكروا أكثر في الأمر، أرجوكم".

"فكرت".

"ماذا عن تغيير الفرع؟ هل فكرتم؟"

"لا".

"لماذا؟ تعرفون جيداً أن فرع أدب الأطفال ليس الفرع الوحيد الذي يدرس في الجامعة".

"أعرف".

"تستطيعون اختيار الأدب الكلاسيكي بدلاً عنه، أو الأدب الحديث وأنت تحبينه كثيراً".

"وما هو ارتباط الأدب الحديث بأدب الأطفال؟"

"حسناً، ادرسي علم نفس الأطفال، هذا يرتبط بالأطفال".

لم أكن في مزاج يسمح لي بسماع حديث نعيم، لا طائل وراءه إلا تعذيبي، أتوقع لو أنه كان في باريس لما حدث هذا لي، كنت أتحدّث معه على نحوٍ يجعله يتحمل ما حدث ويتعذب، كنت أنتقم من نعيم، ولأنه سافر إلى الهند وتركني، فعليّ جعلُ هذا السفر سُماً. ورغم ذلك، بعد نهاية كل اتصال أندم، قد لا يحصل نعيم على فرصة أخرى لزيارة الهند، إذن، أليس من حقه الاستفادة من هذه الفرصة قدر استطاعته؟

Twitter: @ketab_n

-١٠٦-

قد يكون السبب الصيف أو الوحدة، يمكن أيضاً أن نقول أنها البطالة، على أيّ حال أصبحتُ أكثر من أي وقت مضى عارفة(*) ابتعدتُ عن الحياة وقطعت كل علاقاتي، ومع مرور الوقت، كان جليسي الوحيد هو سالي؛ سالي العزيزة، ومن جراء تقدم العمر أصابها الحول وخرفَت، وقد يكون ضعف البصر هو الذي جعلها تظهرُ حمقاء إلى هذه الدرجة.

تنظرُ إلى جهة، وتركض إلى الجهة الأخرى، وعندما أرسلُها لإحضار حذائي تأتي بقطعة خشبٍ بعَينيها اللتين تصارعان الحول.

مسيو خوان لم يكن حاضراً لدفع علاج سالي، جراحة عينيها مكلفة ومن جانب آخر يزعق في وجهي:

"أتظنين بأني برجوازي؟"

يرى ضعف بصر سالي أمراً طبيعياً، كنت أتحدث مع المسيو خوان، وكانت سالي تضع يديها على رجلي، وتنظرني بعينين حائرتين، أو تنظر لما تراه مني، ولأني لم أكن في يوم كلباً؛ خاصة من النوع الذي أصابه الحول، لا أعرف بالتحديد كيف تراني، ولكن من طريقة تصرفها عرفت أن محدثي هو صاحبها، حتى أحسست أنها علمت من طريقتي في الحديث أن رأي مسيو خوان في عملية العينين وضعف نظرها، وإن كنت أشك في فهمها لكلمة برجوازي لكنها فهمت، فبت أراقب كل حركة تصدرُ من سالي.

يوماً بعد يوم، كنت أتمعن في حركات سالي وسكناتها، عندما تكون

---

*) نسبة إلى العرفان والعرفاء والصوفية.

Twitter: @ketab_n

غير مُرتاحة تقف على قائمتين، بأذنين منتصبتين، ناظرة لجهتيها، كأنها للتو التهمَت وليمة شهية. أكثرُ ما يحزنني عندما أراها، ومن أثر ضعف نظرها، تضعُ فمها في مكان لا يجبُ حشر الفم فيه، فأبكي من أجلها.

من الممكن أن تحب كل شيء، وبالإمكان التألم من أجلهم، ولكن ما أن أذكرهم أحزن من أجلهم فقط.

Twitter: @ketab_n

-١٠٧-

وصل نعيم صباح أحد الأيام. سمعت دورة المفتاح في ثقب الباب. وكما كنت مستلقية على سريري، فتحتُ عيني لكني لم أتحرك، كنت أسمع وقع أقدامه في غرفته.

وإن كان حضوره هادئاً دائماً، أصبح الآن أكثر هدوءاً. لم يكن يريد إيقاظي، لكنني مستيقظة. يومان مرا مُنتظرة قدومه، وكنت بين نائمة ومُستيقظة.

لأول مرّة يفتح الباب الفاصل بين غرفتينا، وأنا أرى ظله المتعرج وهو يتقدّمُ إلى غرفتي خطوة خطوة، حتى استقرّ في إطار الباب، بلا ذلك التعرج الظلي.

كيف عرف نعيم أني مُستيقظة؟ هل رأى ابتسامتي؟ مُستحيل. من الممكن أنه شعر بها. على أي حال، قال الصوت الدافئ:

"كيف هي صحتكم؟"

ومن غير أن أجيبه على سؤاله، قلت له:

"ماذا عنكم أنتم؟"

أحياناً أقلد طريقة نعيم الأفغانية في الحديث، هذا عندما أكون على ما يرام، وهو يُجيبني دائماً بابتسامةٍ صغيرة مثلما يفعل الآن، حتى أني أرى أسنانه البيض في عتمة الغرفة، وظله العالي الذي احتكّ مع أول ضوء للصبح، لكن نعيم ماذا يرى مني؟ بصعوبةٍ يرى انتفاخاً مُتكوّماً خلف البطانية على السرير؟

Twitter: @ketab_n

لم أتحرّك من مكاني، ولم يتحرك نعيم أيضاً. أود البقاء أياماً، أشهر، في هذه الحالة ناظرة إلى تلك الناحية، إلى الباب وإطاره، إلى المكان نفسه الذي انطلق منه ظل صديقي، ظل أطول وأنحف منه، وتبعثر في الأرجاء.

لونارد'ي' جاء، لكني غير مصدقة، بعد.

مرداد ١٣٨٤

Twitter: @ketab_n

من الرواية:

شخيرُ نعيم يشبهُ شخير قط، وأنا لا أحتملُه، أتحرّكُ في سريري مثل دودة، وكلّ دقيقة أبدّلُ مكاني؛ أكوم من المخدات على رأسي، أضع قطناً في أذني. وأدركتُ أن الأوضاع كانت منذ البداية سيئة، والآن هذه الأصوات لا تأتي من الخارج، بل من داخل جسدي، وما هذه الأساليب إلا مانعة لخروجها، وسبّبت في انعكاسها إلى الداخل أكثر؛ خاصة عندما أحاول عدم التفكير بها، حيث تسوءُ الأمور أكثر. لا أستطيع النوم، ولا أستطيع الأكل، ولا أفهم الدروس، وخلاصة الأمر بحضور نعيم لم أعُد مرتاحة، ولأني وظّفتُ كلّ سمعي وعقلي لأصوات ذلك القسم من البيت، تخيّلتُ أنّه هو أيضاً جهّز أذنه لالتقاط أيّ صوت صادر مني.

متوسط

Twitter: @ketab_n

طاهرة علوي: من أشهر الروائيات الإيرانيات المُعاصرات، ولِدت في العام ١٩٥٩ في طهران. بعد إنهائها المرحلة الثانوية، غادرت بلادها إلى فرنسا لدراسة الدكتوراة. أصدرَت: «امرأة في مهبّ الريح، ١٩٩٦، مجموعة قصصية»، و«أنا وهايدغر، ١٩٩٧، رواية»، و«تحدثُ حياتي في أيام الثلاثاء، ٢٠٠٠، مجموعة قصصية»، و«السيدة الكاتبة، ٢٠٠٣، رواية». وترجمَت إلى الفارسية الأعمال التالية: «أطول رسالة في العالم» و«لكن» و«وداعًا جدّي»، و«ضارب الطبل». مُنِعت روايتها هذه والمعنونة بالفارسية «تابستان آن سال» في إيران.

أحمد حيدري: قاص ومترجم، ويعمل كمعد ومقدم برامج ومذيع نشرات أخبار في إذاعة طهران منذ عام ٨٩٩١.

نُشرت كتاباته وترجماته في العديد من الصحف العربية والإيرانية وله: «المرأة التي أضاعت رجلها»، عمل مشترك مع عدة مترجمين لمجموعة قصص الروائي صادق هدايت. «لا ريب فيه» للروائية طاهرة علوي عن دار فراشة - الكويت، ودار الفارابي. «أصفهان نصف العالم» ترجمة لنص أدبي عن الروائي صادق هدايت نُشر ضمن سلسلة الرحلات الأدبية المترجمة في أبو ظبي.

المتوسط

Twitter: @ketab_n

صيف ذلك العام هي رواية الاغتراب التي تولد نوعا من البحث عن الذات، المكان هو فرنسا حيث تتعرف البطلة على جيرانها في السكن، وأثناء هذا البحث، تعيش البطلة فكرة الابتعاد عن كل ما يذكرها بوطنها، ولكنها تتعرف على شاب أفغاني يبادلها هذه المشاعر، وفي الوقت ذاته يخجل من التصريح بها.

تذهب الرواية سريعا في الإجابة على أسئلة الأحلام، بين استحالة تحققها وبين إدراكها. شخصيات من جنسيات عدة تمر من ممر السرد متفادية الاصطدام مع بعضها البعض. ورغم العجز الظاهر عند البعض، لكن هنالك قوة ظاهرة عند آخرين. هناك مغالطات كبيرة، ساذجة وحادة أحيانا في هذه الرواية، التي حاولت فيها طاهرة علوي أن تحفر اختلافها عن الرواية الإيرانية التقليدية عبر إحداث ثقوب لغوية تمتد في مساحات قريبة جداً من إيران غير متخلية عن إيقاع السرد السريع والراكض دون توقف.

ISBN 978-91-87373-74-9
9 789187 373749

المتوسط